

المبحث الثالث:

عقيدة الدولة الأيوبية

كانت العودة إلى هوية الأمة المسلمة، وإلى عقيدة أهل السنة والجماعة، من أبرز معالم التجديد في العهد الزنكي والأيوبي، ولقد طال الانحراف وانتشرت البدع، تحميتها دولة ظالمة وهي الدولة الفاطمية العبيدية بمصر، فكانت العودة إلى تحكيم الكتاب والسنة من أضخم منجزات الدولتين النورية والصلاحية فقد أقيم العدل وقمعت البدع، وصبغت الدولة بالصبغة الإسلامية الصافية، وقد سار صلاح الدين الأيوبي على نهج نور الدين زنكي بتطبيق الشرع في سائر أمور الدولة، وتنفيذ العدل وقضى على المظالم، وكان يشرف بنفسه لرفع المظالم واعتمد في ذلك على القضاة والفقهاء، كان صلاح الدين قد اتصف بالإيمان والعبادة والتقوى والخشية من الله والثقة به، والالتجاء إليه، وكان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، وصبغ دولته بعقيدة أهل السنة والجماعة التي بينها رسول الله ﷺ وسار على نهجها الخلفاء الراشدون.

واستمر الأيوبيون بعد وفاة صلاح الدين على هذه العقيدة وكان صلاح الدين كثير التعظيم لشعائر الدين، وكان مبغضاً للفلاسفة والمعتلة ومن يعاند الشريعة، وإذا سمع عن معاند ملحد في مملكته كان يأمر بقتله، ولقد حارب المذهب الشيعي الرافضي الإسماعيلي واستطاع أن ينفذ المخطط الذي وضعه نور الدين زنكي للقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية الرافضية وعمل على محاربة العقائد الفاسدة في مصر، وإعادة الفكر الإسلامي الصحيح إليها عبر استراتيجيات واضحة، وقد استفادت الدولة الأيوبية من الجهود العلمية والوسائل الدعوية من الدولة السلجوقية والزنكية والغزنوية فالدولة الأيوبية جاءت بعد دول سنية ساهمت في نشر الكتاب والسنة في الأمة الإسلامية، وقد اهتم صلاح الدين الأيوبي بالمحافظة على أصول العقيدة الإسلامية على مذهب أهل السنة ونهجوا نهج المذهب الأشعري وحرصوا على محاربة أي انحراف عنها، والقضاء على مظاهره وكان معظم الأيوبيين علماء بأصول هذه العقيدة (1).

يقول ابن شداد عن صلاح الدين: وكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ العلم، وأكابر الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه، غير مارق سهم النظر فيها إلى التعطيل والتمويه... وقد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع ما يحتاج إليه في

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 246.

هذا الباب وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر، ورأيته وهم يقرؤونها بين يديه (1)، ولقد سعت الدولة الأيوبية إلى نشر عقيدة أهل السنة في مصر وكافة أرجائها، وقد حرص صلاح الدين على أن تكون عقيدة أهل السنة هي ذات النفوذ في المؤسسات الفكرية التي أنشأها (2).

أولاً: توسع الأيوبيين في إنشاء المدارس السنية:

بدأت هذه المرحلة في عام 572هـ/1176م أي بعد تمكن صلاح الدين من إخضاع معظم الشام لسلطانه ثم عوده إلى مصر لتدبير شؤونها ففي هذا العام أمر ببناء مدرستين: إحداهما للشافعية عند قبر الإمام الشافعي عرفت بالمدرسة الصلاحية. والثانية للحنفية وتوالى بعد ذلك إنشاء المدارس السنية في أماكن متعددة من القاهرة وغيرها من البلاد من قبل أمراء الأيوبيين وأعوالمهم، ولن نستطيع الحديث عن كل هذه المدارس لكثرتها، إذ أصبح إنشاء المدارس سنة متبعة من قبل أعيان الدولة في هذه الفترة رجالاً ونساء (3)، وإنما سنركز حديثنا حول أشهر المدارس.. التي كان لها دور في عملية التحويل الكبير للبيئة المصرية من المذهب الشيعي إلى المذهب السني (4).

1- المدرسة الصلاحية:

بدأ بناء هذه المدرسة في عام 572هـ/1176م عند ضريح الإمام الشافعي وكان وقفاً على الشافعية ويصفها السيوطي بقوله: إنها تاج المدارس، ثم يذكر أن التدريس بها أسند للعالم الزاهد نجم الدين الخبوشاني وقد زار ابن جبير هذه المدرسة في أواخر ذي الحجة من عام 578هـ/1183م، وكان العمل في توسعتها ما يزال مستمراً، وذكر ابن جبير أن هذه المدرسة لم يعمر مثلها في هذه البلاد وليس لها نظير في سعة المساحة والحفاوة بالبناء: يخيل لمن يطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته والنفقة عليها لا تحصى. تولى ذلك بنفسه الشيخ الخبوشاني، وسلطان هذه الجهات: صلاح الدين يسمح له بذلك ويقول: زد احتفالاً وتأنفاً، وعلينا القيام بمثونة ذلك، وذكر ابن جبير أنه حرص على لقاء الخبوشاني، لأن أمره كان مشهوراً بالأندلس (5)، ولعل في إشارة ابن جبير ما يؤكد أن صلاح الدين كان يتخير أساتذة مدارس من أهل العلم والفضل والصلاح، ومن بين من

(1) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص 7.

(2) التاريخ السياسي والفكري ص 246.

(3) المصدر نفسه ص 233.

(4) المصدر نفسه ص 233.

(5) رحلة ابن جبير ص 21.

ظهرت شهرتهم في العالم الإسلامي، حتى تتحقق على أيديهم الأهداف التي يسعى إليها، وحتى يكونوا عنصر جذب لطلاب العلم من جميع أنحاء العالم الإسلامي (1).

2- مدرسة المشهد الحسيني :

وبنى صلاح الدين مدرسة بالقاهرة بجوار المشهد المنسوب - ظلماً وزوراً - إلى الحسين، وجعل عليها وقفاً كبيراً (2)، كما أشار المقرئزي إليها أثناء حديثه عن المشهد الحسيني فقال: ولما ملك السلطان الناصر جعل به حلقة تدريس وفقهاء، فوضها للفقهاء البهاء الدمشقي وكان يجلس عند المحراب الذي الضريح خلفه، فلما وزر معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ للملك الكامل.. جمع من أوقفه ما بنى به إيوان التدريس الآن، وبيوت الفقهاء العلوية (3) وإذا كان الهدف العام الذي ابتغاه صلاح الدين من زرع المدارس السننية في مصر هو التمكين لمذهب السنة والقضاء على المذهب الشيعي، فإن لإنشاء هذه المدرسة في داخل المشهد الحسيني مغزى خاصاً، فقد كان من المعامل الأخيرة التي يلجأ إليها بقايا الشيعة في مصر، ومن استطاع الفاطميون أن يستميلوا عواطفهم من عوام السنة، ولذا كان من الضروري أن توجد مدرسة في هذا المكان لتعليم الدين الصحيح، ومحاربة ما نشره الفاطميون من بدع (4).

3- المدرسة الفاضلية :

ومن المدارس الهامة التي أنشئت في هذا العصر المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل سنة 580هـ/1184م ووقفها على الشافعية والمالكية، وخصص إحدى قاعاتها لإقراء القرآن الكريم وتعليم علم القراءات على الإمام القاسم أبي محمد الشاطبي (صاحب الشاطبية ت 596هـ/1294) ووقف على هذه المدرسة عدداً كبيراً من الكتب قيل إنها بلغت مائة ألف كتاب، وجعل إلى جانبها كتاباً وقفه على تعليم الأيتام، ووصف المقرئزي هذه المدرسة بقوله: وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها (5)، كما بنى السلطان العادل: أخو صلاح الدين مدرسة للمالكية وكذلك فعل وزيره

ص _____ في _____

عبد الله بن شكر (ت 630هـ/1232) إذ أقام مدرسة للمالكية في موضع دار الوزير

(1) التاريخ السياسي الفكري للمذهب السني ص 234.

(2) الوفيات لابن خلكان (206/6).

(3) المواعظ والاعتبار (427/1، 428).

(4) التاريخ السياسي الفكري ص 235.

(5) المواعظ والاعتبار (366/2).

الفاطمي يعقوب بن كلس، وكان ابن شاکر عالماً متفقهاً على مذهب الإمام مالك⁽¹⁾.

4- دار الحديث الكمالية:

وكان للملك الكامل بن العادل شغف بسماع الحديث الشريف، كما كان معظماً للسنة وأهلها، رغباً في نشرها، فأنشأها بالقاهرة أول دار لتدريس الحديث، وهي: المدرسة الكاملية وذلك في عام 622هـ/1225م⁽²⁾، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية، وأسند مشيختها إلى الحافظ عمر بن حسن الأندلسي (المعروف بابن دحية) ت 633هـ/1235م وكان بصيراً بالحديث معتنياً به، وتأدب الملك الكامل على يديه⁽³⁾.

5- المدرسة الصالحية:

أما المدرسة التي بناها الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل فقد أقامها مكان قصر الفاطميين الشرقي، وشرع في إنشائها في عام 639هـ/1241م مستوحياً فكرتها من المدرسة المستنصرية، حيث وقفها على المذاهب الأربعة ورتب فيها دروساً لهذه المذاهب فـ عـ ا م 641هـ/1243م يقول المقرئزي عنه وهو أول من عمل بديار مصر دروساً أربعة في مكان⁽⁴⁾.

وتأتي أهمية هذه المدرسة في أنها أتاحت الفرصة للحنبلة كي يسهموا بجهودهم في حركة الإحياء السني في مصر، ذلك أنهم حتى تاريخ إنشاء هذه المدرسة كانوا الفئة الوحيدة - من بين طوائف السنة - التي لم يهتم الأيوبيون الأولون بإنشاء مدارس لها، ولعل السر في عدم الاهتمام بأمرهم أنهم كانوا قلة نادرة، يؤكد هذا ما يقوله السيوطي عنهم وهو بصدد ذكر فقهاءهم في مصر، هم بالديار المصرية قليل جداً، ولم أسمع بخبرهم فيها إلا في القرن السابع وما بعده. ويوضح السر في هذا بقوله: إن مذهب أحمد لم يبرز خارج العراق إلا في القرن الرابع الذي ملك فيه العبيديون مصر، وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفيًا وتشريدًا، وأقاموا مذهب الرفض والشيعية، حتى إذا ما سقطت دولتهم تراجع العلماء إليها من سائر المذاهب⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه (365/2، 371).

(2) المصدر نفسه (375/2).

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 236.

(4) المصدر نفسه ص 236.

(5) حسن المحاضرة (480/1).

ولم تكن جهود الأيوبيين - في إنشاء المدارس - مقصورة على القاهرة وحدها وإنما امتدت إلى مدن أخرى في مصر، ففي الفيوم أنشأ تقي الدين عمر مدرستين: إحداها للشافعية، والأخرى للمالكية (1)، وأنشأ صلاح الدين مدرسة للشافعية بمدينة الإسكندرية في عام 577/هـ 1181م (2)، وكانت الأوقاف الكثيرة وتيسير سبل المعيشة في هذه المدارس للأساتذة والطلاب إحدى الوسائل الهامة التي أسهمت في جذب العلماء وطلاب العلم إلى مصر وقد كان من المتبع عند تأسيس أي مدرسة أن يوقف عليها ما يكفي لاستمرار الحياة العلمية بها، يقول ابن جبير: ومن مفاخر هذا البلد - الإسكندرية - ومفاخره العائدة إلى سلطانه: المدارس والمحارس (3) الموضوعه فيه لأهل الطلب والتعبد يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوي إليه، ومدرساً يعلمه الفن الذي يريد تعلمه، وإجراء يقوم به في جميع أحواله، واتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الطرائين حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها، ونصب لهم مارستاناً لعلاج من مرض منهم، ووكل بهم أطباء يتفقون أحوالهم (4).

وأشار ابن جبير إلى كثرة مساجد الإسكندرية حتى إن المكان الواحد به أربعة أو خمسة مساجد وربما كانت المساجد مركبة - أي مكونة من مسجد ومدرسة - وكلها بأئمة مرتبين من قبل السلطان؛ فمنهم من له خمسة دنائير مصرية في الشهر، ومنهم من له فوق ذلك، ومنهم من له دونه، وهذه منقبة كبيرة من مناقب السلطان (5).

وهذه الصورة المشرقة التي رسمها ابن جبير لجهود صلاح الدين في الإسكندرية توحى بعظم جهوده في هذا المجال بالنسبة لبقية البلاد، ذلك أن الإسكندرية ظلت معقلاً لأهل السنة في العصر الفاطمي، وكان بها في أواخر هذا العهد مدرستان سنيتان إحداها للمالكية: وهي مدرسة الحافظ ابن عوف الزهري، والأخرى للشافعية: وهي مدرسة الحافظ السلفي واستطاعت هاتان المدرستان أن تقوما بدور كبير في الحفاظ على التراث السني في مصر الفاطمية، حتى أن القاضي الفاضل قد ذكر هذه الحقيقة في إحدى الرسائل التي بعث بها صلاح الدين إلى نور الدين إثر اكتشافه لأحد دعاة الفاطميين في الإسكندرية، فيقول: ومما يطرف به المولى أن ثغر الإسكندرية على عموم مذهب السنة

(1) المواعظ والاعتبار (365/2).

(2) الحافظ السلفي، محمود زيتون ص 140.

(3) المحارس: الواحد - محرس: مأوى مخصص للزهاد والمسافرين والفقراء - انظر: التاريخ السياسي والفكري ص 237.

(4) رحلة ابن جبير ص 15.

(5) المصدر نفسه ص 16، 17.

(1). فإذا كانت أوقاف صلاح الدين في الإسكندرية التي حافظت على سنتها بهذه الكثافة فلا شك أنها في البلاد الأخرى التي لقيت دعوة الفاطميين فيها رواجاً كانت أكثر وأكبر، يدلنا على ذلك ما قرره صلاح الدين لنجم الدين الخبوشاني مدرس الصلاحية، فقد خصص له أربعين ديناراً في الشهر عن التدريس، وعشرة دنائير عن النظر في أوقاف المدرسة، وستين رطلاً من الخبز في كل يوم وراويتين من (2) ماء النيل، وقد أكمل ابن جبير لنا الصورة حينما تابع رسده لجهود صلاح الدين في القاهرة، كي يبسر أسباب العلم للراغبين فيه فيقول: ومن العجيب أن القرافة كلها مساجد مبنية، ومشاهد معمورة يأوي إليها الغرباء والعلماء والصلحاء والفقراء، والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر، والمدارس التي بمصر والقاهرة كذلك، وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألفي دينار مصرية في الشهر (3).

ومن هذا يتضح أن صلاح الدين وهو يتابع مسيرة الإحياء السني في مصر لم يكتف بإنشاء المدارس، وإنما كان حريصاً أيضاً على جذب علماء السنة إليها من جميع أنحاء العالم الإسلامي كي يشاركوا بجهودهم في هذا الإحياء الفكري، بعد أن كرس الفاطميون جهودهم للقضاء على علماء السنة في مصر، وقد مر بنا قبل قليل ما سجله عليهم السيوطي من أنهم أفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة؛ قتلاً ونفيًا وتشريدًا، حتى إذا سقطت دولتهم تراجع العلماء من سائر المذاهب السنية إليها، وكانت جهود صلاح الدين أكبر مشجع لهذه الهجرات التي قام بها العلماء السنيون إلى مصر، وكما اهتم صلاح الدين بجذب العلماء إلى مصر فإنه اهتم كذلك بجذب الصوفية، فأنشأ لهم أول "خانقاه" للصوفية في مصر، وجعلها "برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة" ووقف عليهم أوقافاً جلييلة، وولى عليهم شيخاً يدبر أمورهم عرف بشيخ الشيوخ.

ويذكر المقرئزي أن سكانها من الصوفية كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة، وقد رتب لهم السلطان الخبز واللحم والخلوى في كل يوم، وأربعين درهماً من العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته (4) وهذه العناية الزائدة بأمور الصوفية كانت تستهدف

(1) كتاب الروضتين نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 238.

(2) حسن المحاضرة (57/2).

(3) رحلة ابن جبير ص 22.

(4) المواعظ والاعتبار (415/2، 416).

- في ظني - غرضاً معيناً يتعلق بحركة الإحياء السني، فعلى الرغم من أن التصوف المعتدل كان اتجاهاً له احترامه من قبل الحكام وعامة الناس في هذا العصر، إلا أن الاهتمام به على هذا النحو في مصر بالذات كان عملاً مقصوداً، ويهدف إلى تحقيق غاية معينة ولعل السر في هذا هو أن الفاطميين في مصر قد عجزت أساليبهم المتعددة - في الدعوة إلى مذهبهم - عن أن تتسلل إلى عقائد معظم المصريين، ولكنها بسهولة أثرت في عواطفهم، فمظاهر الحزن والبكاء على الحسين، والاحتفال بموالد أهل البيت، واحتفاء الفاطميين بهذه الاحتفالات وغيرها، كل ذلك ترك تأثيره في عواطف المصريين، وما تزال بقية من آثاره موجودة إلى اليوم، وإذا كان صلاح الدين حاول جذب علماء السنة إلى مصر في كل مكان، ليشاركوا بعلمهم، وفكرهم في حركة الإحياء السني فإن هناك جانباً هاماً كان لابد من العمل على إشباعه وتحويله من الوجهة التي اتجه بها الفاطميون إلى وجهة أخرى، هذا الجانب الهام هو الجانب العاطفي في الناس والذي سيطر عليه الفاطميون بسهولة، وكان الصوفية من الفئات القادرة على إشباع هذا الجانب يومها بأخلاقهم السهلة السمحة، وزهدهم في متاع الدنيا، وقدرتهم على مخاطبة عواطف الناس عن طريق مجالس الوعظ والذكر وغير ذلك، وفعلاً نجح الصوفية في العصر الأيوبي في لفت أنظار الناس إليهم وإلى رسومهم، وطقوسهم، فيحكي المقرئ: أن الناس كانوا يأتون من مصر إلى القاهرة ليشاهدوا صوفية خانقاه "سعيد السعداء" وهم متوجهون إلى جامع الحاكم لأداء صلاة الجمعة، حتى تحصل لهم البركة والخير بمشاهدتهم(1).

وقد تمكن صلاح الدين وخلفاؤه بفضل جهودهم في جذب علماء السنة إلى مصر من أن يخرجوها من عزلتها الفكرية، وأن يعيدوا صلتها الوثيقة بمراكز الثقافة السنية في العالم الإسلامي: كبغداد ودمشق وقرطبة بعد أن قطع الفاطميون كل صلة لها بهذه المراكز، وتخلف عطاء مصر في مجال الفكر السني ما يزيد عن القرنين ونصف من الزمان(2).

ثانياً: جهود الأيوبيين في الشام والجزيرة:

وهذه العناية الزائدة بحركة البعث السني في مصر لا تعني أن الأيوبيين أهملوا البلاد الأخرى التابعة لهم والتي لم تمر بظروف مصر، بل وجدناهم لا يألون جهداً في نشر الثقافة السنية في كل بلد يحلون به سواء في هذا السلاطين، والأمراء من الرجال

(1) المواعظ والاعتبار (415/2).

(2) سيرة القاهرة، التاريخ السياسي والفكري ص 240.

والنساء، والأعوان من الوزراء والقواد والعلماء والكتاب.. وحرص كثير من هؤلاء على بناء المدارس وتشبيدها في بلاد الشام والجزيرة، فصلاح الدين أنشأ مدرسة للشافعية بمدينة القدس وبنى مدرسة للمالكية بدمشق وجعل داره في دمشق عندما انتقل إلى مصر خانقاه للصوفية وأنشأ تقي الدين عمر مدرسة بمدينة الرها وأتم العزيز عثمان بن صلاح الدين مدرسة بدمشق كان أخوه الأفضل قد شرع في عمارتها، وعرفت بالمدرسة العزيزية، وشيد المعظم عيسى بن العادل مدرسة للحنفية بدمشق عرفت بالمعظمية(1)، وأوقف سيف الإسلام أخو صلاح الدين على الحنابلة مدرسة بدمشق (2) وأقام الأشرف موسى بن العادل دار الحديث الأشرفية بهذه المدينة (3)، وأنشأ القاضي الفاضل دار الحديث الفاضلية قرب الجامع الأموي(4)، وبنيت ست الشام - أخت صلاح الدين - مدرسة للشافعية بدمشق (5)، وكذلك فعلت أختها ربيعة خاتون فبنيت مدرسة وفتتها على الحنابلة بدمشق أيضاً (6)، إلى غير ذلك من المدارس التي كثرت وانتشرت حتى إن عز الدين بن شداد عد منها في دمشق وحدها ثنتين وتسعين مدرسة، موزعة بين المذاهب السنية الأربعة، وذلك عدا من الأماكن الأخرى التي كانت تشغل في التعليم والدرس؛ كالجامع (7) الأموي.

وقد نقل ابن جبير - أيضاً - صورة عن الحياة العلمية في دمشق، وخاصة داخل مساجدها، ومشاهدها وذلك عندما زار هذه المدينة في عام 580هـ/1184م فيقول عن الجامع الأموي: وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيه إجراء واسع وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم، ومرافق هذا الجامع المكرم للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة (8) ويقول عن المشاهد: ولكل مشهد من هذه المشاهد أوقاف معينة من بساتين وأرض حتى إن البلد تكاد الأوقاف تستغرق جميع ما فيه وكل مسجد يستحدث بناؤه، أو مدرسة، أو خانقة (خانقاه) يعين لها السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها، والمتلزمين لها.. ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار

(1) الدارس في تاريخ المدارس (579/1).

(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 241.

(3) الدارس في تاريخ المدارس (19/1).

(4) التاريخ السياسي والفكري ص 241.

(5) المصدر نفسه ص 241 نقلاً عن مرآة الزمان.

(6) المصدر نفسه ص 241.

(7) المصدر نفسه ص 241.

(8) رحلة ابن جبير ص 220.

من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة، وتتفق فيها الأموال الواسعة، وتعين لها من مالها الأوقاف. ومن الأمراء من يفعل مثل ذلك، لهم في هذه الطريقة المباركة مسارة مشكورة (1)، وحظيت حلب هي الأخرى بقسط كبير من جهود الأيوبيين وأعاونهم، فأنشأ بها الظاهر غازي بن صلاح الدين مدرسة مشتركة للشافعية والحنفية، وتولي النظر والتدريس بها القاضي بهاء الدين بن شداد الذي وكل إليه الظاهر النظر في أوقاف حلب كلها (2)، وبنى ابن شداد المدرسة الصحابية للشافعية، وجوارها أقام داراً للحديث ظلت مجمعا لأهل الحديث يسكنون بها، ويقروون، ويسمعون ويكتبون حتى محنة التتار، ووقف عليها قرية من قرى حلب، وبالقرب من هذه الدار بنى داراً للصوفية (3) وبقيت حلب طيلة عهد الأيوبيين منارة للعلم، يقصدها الطلاب من أنحاء شتى بفضل الله ثم الجهود العلمية التي نهض بها ابن شداد، حيث اعتنى بترتيب أمورها، وجمع الفقهاء بها فعمرت في أيامه المدارس الكثيرة وقصدها الفقهاء من البلاد المختلفة، وكثر الاشتغال بالعلم والإفادة منه، ويذكر ابن خلكان أنه التحق بالمدرسة التي أنشأها ابن شداد هو وأخوه، وكان ابن شداد يدرس فيها بنفسه، ويرتب معه أربعة من الفقهاء الفضلاء للإعادة، كما يشير ابن خلكان إلى أن العلماء بطلب في أيام ابن شداد كانت لهم حرمة تامة ورعاية كبيرة وخصوصاً جماعة مدرسته فإنهم كانوا يحضرون مجالس السلطان، ويفطرون في رمضان على سماطة، وكان للقاضي عقب صلاة الجمعة درس في الحديث يسمعه المصلون (4) ويذكر ابن واصل أنه توجه إلى حلب في أواخر عام 627هـ/1230م ليُدرس الفقه والأصول والنحو واللغة ويتبرك بلقاء ابن شداد، وكان نزوله بالمدرسة الصحابية (5).

ثالثاً: عناصر الثقافة السنية في العهد الأيوبي:

كانت عناية صلاح الدين الأيوبي والسلطين الذين جاءوا بعده للتمكين لمذهب أهل السنة في البلاد التي حكموها عناية شاملة ومكثفة في المدن التابعة لهم، كالقاهرة والإسكندرية، ودمشق، وحلب، وغيرها ومن أهم عناصر الثقافة السنية التي اهتم بها الأيوبيون:

(1) رحلة ابن جبير ص 223.

(2) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (355/4، 356).

(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 242.

(4) وفيات الأعيان (87/6 - 89).

(5) مفرج الكروب (311/4، 312).

1 - القرآن الكريم:

اهتم الأيوبيون بتلقي القرآن الكريم للصغار، وتحفيظهم إياه في البلاد التابعة لهم، فابن جبير يذكر أن صلاح الدين أمر بعمارة أماكن متعددة في مصر، ورتب فيها معلمين للقرآن الكريم يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة، وتجرى عليهم الجراية الكافية لهم (1)، ويصور القاضي بهاء الدين بن شداد مدى عناية صلاح الدين بالقرآن فيذكر أنه مر يوماً على طفل صغير يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقربه إليه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة. وكان يشترط في إمامه، أن يكون عالماً بعلوم القرآن، متقناً لحفظه (2)، وقد مر بنا أن القاضي الفاضل جعل إلى جانب مدرسته في القاهرة كتاباً وقفه على تعليم الأيتام القرآن الكريم، وأنه خصص إحدى قاعات هذه المدرسة لإقراء القرآن وتدريب علم القراءات، وعندما زار ابن جبير دمشق وجد الجامع الأموي لا يخلو من تلاوة القرآن الكريم لا صباحاً ولا مساءً ولهؤلاء القراء إجراء يومي يعيش منه أكثر من خمسمائة إنسان وعند فراغ القراء من التلاوة الصباحية يجلس أمام كل منهم صبي يلقنه القرآن الكريم، وللصبيان على قراءاتهم جراية معلومة أيضاً تصل إليهم عدا أبناء ذوي اليسار فإن آباءهم ينزهونهم عن أخذها (3)، كما رأى ابن جبير مكاناً آخر بدمشق، يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم، وعليه وقف كبير يأخذ منه المعلمون ما يفي بحاجات الصبيان وكسوتهم وينفقونه عليهم (4)، وكان علم القراءات يدرس بدار الحديث الأشرفية بدمشق (5)، وبالمدرسة القاهرية بحلب (6).

2 - الحديث الشريف:

واهتم الأيوبيون بالحديث الشريف اهتماماً عظيماً، وكان هذا الاهتمام تلبية لحاجتين ملحتين واجههما المجتمع الإسلامي في مصر والشام، إحداهما عامة، والأخرى خاصة ببعض البيئات. أما العامة فهي أن المسلمين كانوا يواجهون عدواً يترصد بهم الدوائر، ويعبث بمقدساتهم، وكان الاهتمام بتحريض المؤمنين على قتالهم يتطلب عناية كبيرة

(1) رحلة ابن جبير ص 25.

(2) سيرة صلاح الدين ص 9 التاريخ السياسي والفكري ص 243.

(3) رحلة ابن جبير ص 220.

(4) المصدر نفسه ص 220 التاريخ السياسي والفكري ص 243.

(5) حسن المحاضرة (506/2).

(6) أعلام النبلاء (356، 355/4) التاريخ السياسي والفكري ص 244.

بالحديث الشريف، وخاصة، ما يتعلق منه بهذا الباب، لذا وجدنا صلاح الدين شغوفاً بحديث رسول الله ﷺ يردده ويسمعه بل ويسعى لسماعه، ويشجع على التأليف فيه، ويذكر العماد الأصفهاني أنه تردد معه أثناء زيارته للإسكندرية في عام 572هـ/1176م على الحافظ السلفي، وسمعا منه الحديث الشريف (1)، كما سمع هو وأولاده موطأ مالك من فقيه الإسكندرية ابن عوف الزهري، وذلك في عام 577هـ/1181م (2).

ويصف بها الدين بن شداد صلاح الدين: بأنه كان شديد الرغبة في سماع الحديث وأنه كان يسعى إلى علمائه إذا كانوا ممن ينزهون أنفسهم عن حضور مجالس الحكام.

ويستطرد ابن شداد قائلاً: أنه كان يحب أن يقرأ الحديث بنفسه، ويستحضرني في خلوته، ويحضر بعضاً من كتب الحديث ويقرأها (3)، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه حثه على الجهاد أو ذكر له شيئاً من أخباره؛ يقول ابن شداد: ولقد أُلّف له كتب عدة في الجهاد، وأنا ممن جمع له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث ورد في فضله، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل (4)، ولم تكن العناية بالحديث مما اختص به صلاح الدين، بل إن كثيراً من أمراء الأيوبيين سعى إلى سماع الحديث وروايته، ومنهم تقي الدين عمر الذي سمع من السلفي بالإسكندرية (5)، والملك الكامل الذي نهج سبيل نور الدين وأنشأ بمصر أول دار الحديث الشريف، ووصفه السيوطي بأنه كان معظماً للسنة وأهلها، وأنه سمع من السلفي وأجازته (6)، كما وصفه سبط ابن الجوزي بأنه كان يتكلم في صحيح مسلم بكلام مليح (7)، أما الأشرف بن العادل فقد سمع صحيح البخاري في دار الحديث الأشرفية التي أنشأها بدمشق (8)، هذه الجهود التي نهض بها الأيوبيون للعناية بالحديث كانت استجابة لحاجة عامة تتعلق بمتطلبات الجهاد في سبيل الله والحض عليه، ورفع إمكانات المسلمين عن طريق تربيتهم، وتنقيحهم بعنصر هام من عناصر الثقافة السنية، وأما الحاجة الخاصة التي تطلبت مزيداً من الحفاوة بالحديث الشريف، فكانت، تتعلق بالبيئات التي ساد فيها

(1) كتاب الروضتين نقلًا عن التاريخ السياسي والفكري ص 245.

(2) طبقات الشافعية (226/4).

(3) سيرة صلاح الدين ص 10 التاريخ السياسي والفكري ص 245.

(4) التاريخ السياسي والفكري ص 245.

(5) المواعظ والاعتبار (265/2).

(6) حسن المحاضرة (33/2، 34) التاريخ السياسي والفكري ص 245.

(7) التاريخ السياسي والفكري ص 245.

(8) الدارس في تاريخ المدارس (19/1 - 21).

النفوذ الشيعي فترة من الزمن؛ ذلك أن الشيعة لا يصححون من الأحاديث إلا ما رواه أهل البيت فقط وما ينسبونه إلى أهل بيت لا يخلو من الوضع والأكاذيب، كروايات زرارة وجابر الجعفي وغيرهم من الكذبة، ويطعنون فيما سواه ويتخذون من ذلك وسيلة إلى الطعن في روايتها (1)، ولذا كانت العناية بالحديث الشريف في مصر إحياء لهذا الجانب من جوانب الثقافة السنية (2).

3 - أصول العقيدة السنية :

اهتم الأيوبيون بالمحافظة على أصول العقيدة على مذهب الإمام الأشعري، فقد كان رحمه الله من العلماء الذين حملوا لواء العلم في كل ميادينه وصنوفه، ويعد من العلماء الذين جمعوا بين شتى المعارف والعلوم (3) والفنون قال عنه الذهبي: العلامة إمام المتكلمين أبو الحسن.. وكان عجباً في الذكاء وقوة الفهم، ولما برع في معرفة الاعتزال كره وتبرأ منه، وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة ويهتك عوارهم (4).

وذكر الذهبي أيضاً: ولأبي الحسن ذكاء مفرط، وتبحر في العلم، وله أشياء حسنة وتصانيف جمة تقضي له بسعة العلم (5)، ويقول: رأيت لأبي الحسن أربعة تأليف في الأصول يذكر فيها قواعد مذهب السلف في الصفات وقال فيها: تمر كما جاءت، ثم قال: وبذلك أقول وبه أدين، ولا تؤول (6).

وقال عنه القاضي عياض: وصنف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته، وأمور السمع الواردة من الصراط، والميزان، والشفاعة، والحوض وفتنة القبر التي نفت المعتزلة، وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملاحدة الرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة (7)، وأما ابن

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 246.

(2) المصدر نفسه ص 246.

(3) شعبة العقيدة لأبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 21.

(4) سير أعلام النبلاء (86/15).

(5) المصدر نفسه (87/15).

(6) المصدر نفسه (86/15).

(7) ترتيب المدارك (24/5).

عساكر فقد أفرد كتاباً في الدفاع عنه، ومدحه كثيراً، وجعله من المجددين، وذكر الروايات الواردة في مدح قومه وأسرته (1) وكذلك السبكي في طبقات الشافعية، وكان مما قال فيه: شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين والذاب عن الدين، والساعي في حفظ عقائد المسلمين، سعيًا يبقى أثره إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، إمام حبر، تقي ير، حمى جناب الشرع من الحديث المفترى، وقام في نصره الإسلام فنصره نصرًا مؤزرًا (2). وغيرهم من العلماء الذين مدحوه وأثنوا على ما قام به من نصر السنة والرد على المبتدعة من المعتزلة وغيرهم (3).

أ - المراحل التي مرّ بها:

مرّ أبو الحسن الأشعري بأطوار ثلاثة في حياته الاعتقادية:

الطور الأول: تكاد أن تجمع كل المصادر التي ترجمت للأشعري على أنه عاش طوره الأول في ظل المعتزلة والاعتزال وأنه بقي فيه ملازمًا لشيخه وزوج أمه الجبائي حتى بلغ أربعين سنة من عمره (4).

الطور الثاني: بعد خروجه على المعتزلة، سلك طريق عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري (5)، وبدأ يرد على المعتزلة معتمداً على القوانين والقضايا التي قالها عبد الله بن كلاب (6)، يقول ابن تيمية رحمه الله: وكان أبو الحسن الأشعري لما رجع من الاعتزال سلك طريق أبي محمد بن كلاب (7)، وهذا الطور يمثل كتاب الملع في الرد على أهل الزيغ والبدع (8)، وكان ابن كلاب يرد على المعتزلة والجهمية ومن تبعهم بطريقة يميل فيها إلى مذهب أهل السنة والحديث، ولكن لما كثر جداله معهم ورده عليهم ومناظرته لهم بالطرق القياسية، سلم لهم أصولاً هم واضعوها، فمن هنا دخلت البدعة في طريقته (9)، وكان ابن كلاب قد أحدث مذهباً جديداً، فيه ما يوافق السلف وفيه ما يوافق

(1) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (339/1).

(2) طبقات السبكي (347/3).

(3) موقف ابن تيمية من الأشاعرة (340/1).

(4) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمنتسبين إليه ص 39.

(5) سير أعلام النبلاء (174/11).

(6) شعبة العقيدة بين أبي الحسن والمنتسبين إليه ص 42.

(7) الفتاوى (556/5) (103/3).

(8) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 42.

(9) المصدر نفسه ص 43.

المعتزلة والجهمية (1)، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: كان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين:

فأهل السنة والجماعة يُثبتون ما يقوم بالله تعالى من الصفات والأفعال التي يشاؤونها ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفى أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها (2)، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي وأبو الحسن الأشعري (3)، وهذا الأصل الذي أحدثه ابن كلاب دفع الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السلف إلى أن يحذروا منه ومن أتباعه الكلابية (4)، وهذه الطريقة التي أحدثها ابن كلاب البصري لم يسبقه إليه غيره، ووافقه عليها الأشعري وردَّ من خلالها على الجهمية والمعتزلة (5).

الطور الثالث: مكث الأشعري زمناً على طريقة ابن كلاب يرد على المعتزلة وغيرهم من خلال ما اعتقده في هذه الطريقة ولكن الله تعالى منَّ عليه بالحق فنور بصيرته وذلك بالرجوع التام إلى مذهب أهل السنة والجماعة، والتزام طريقتهم، واتباع منهجهم ومسلكهم وكان هذا هو الذي أراد أن يلقي الله تعالى عليه، متبرئاً من المذاهب التي عاشها، وداعياً إلى طريقة السلف ومذهبهم، ومنتسباً إلى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وهذا الطور نظراً لأهميته في المجال الاعتقادي فقد أثبتناه له - بعد توفيق الله بثلاثة وجوه (6):

الوجه الأول: أقوال العلماء:

لقد شهد كثير من العلماء والأئمة برجوع الأشعري الرجوع التام إلى مذهب السلف الصالح، وهؤلاء الأئمة ما قالوا هذه الشهادة إلا بعد أن سبروا حياته وعرفوا ما كان عليه وما استقر عليه، ومن هؤلاء العلماء (7).

● شيخ الإسلام ابن تيمية (8).

(1) المصدر نفسه ص 44.

(2) الفتاوى (131/13 - 154).

(3) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول (4/2، 5) على هامش منهاج السنة.

(4) مجموع الفتاوى (368/12).

(5) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 45.

(6) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 47.

(7) المصدر نفسه ص 47.

(8) الفتاوى (53/6).

- تلميذه الحافظ ابن القيم (1).
- الحافظ الذهبي (2).
- الحافظ ابن كثير، وقد قال رحمه الله: ذكروا للشيخ أبي الحسن الأشعري ثلاثة أحوال:

أولها: حال الاعتزال التي رجع عنها لا محالة.

الحال الثاني: إثبات الصفات العقلية السبع: وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام. وتأويل الصفات الخبرية، كالوجه واليدين والقدم والساق ونحو ذلك.

الحال الثالث: إثبات ذلك كله من غير تكيف ولا تشبيه جرياً على منوال السلف وهي طريقته في الإبانة التي صنفها آخراً (3).

● الشيخ نعمان الألوسي (4).

● الشيخ أبو المعالي محمود الألوسي (5).

● العلامة محب الدين الخطيب. وقال رحمه الله في بيان أطوار الأشعري ورجوعه التام إلى مذهب السلف: أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل من كبار أئمة الكلام في الإسلام، نشأ أول أمره على الاعتزال، وتعلم فيه على الجبائي، ثم أيقظ الله بصيرته وهو في منتصف عمره وبداية نضجه، فأعلن رجوعه عن ضلالة الاعتزال، ومضى في هذا الطور نشيطاً يؤلف وينظر ويُلقى الدروس في الرد على المعتزلة، سالكاً طريقاً وسطاً بين طريقة الجدل والتأويل، وطريقة السلف، ثم محض طريقته وأخلصها لله بالرجوع الكامل إلى طريقة السلف في إثبات كل ما ثبت بالنص من أمور الغيب التي أوجب الله على عباده إخلاص الإيمان بها. وكتب بذلك كتبه الأخيرة ومنها في أيدي الناس كتاب "الإبانة" وقد نص مترجموه على أنها آخر كتبه، وهذا ما أراد أن يلقي الله عليه، وكل ما خالف ذلك مما يُنسب إليه، أو صارت تقول به الأشعرية، فإن

(1) اجتماع الجيوش الإسلامية ص 112.

(2) سير أعلام النبلاء (86/15).

(3) إتحاف السادة المتقين للمرتضى الزبيدي ص 48.

(4) جلاء العينين ص 213.

(5) غاية الأمان في الرد على النبهاني (408/2).

الأشعري رجع عنه إلى ما في كتاب الإبانة وأمثاله(1).

الوجه الثاني: التقاؤه الحافظ زكريا الساجي:

بعد خروجه من الاعتزال ومن التخلص من طريقة ابن كلاب لجأ إلى الأئمة من أهل الحديث، ممن عُرفوا بسلامة عقيدتهم وصفاء منهجهم ليأخذ منهم مقالة السلف وأصحاب الحديث ومن أشهرهم الحافظ الثبت محدث البصرة زكريا الساجي (2)، يقول ابن تيمية عن الأشعري: وأخذ عن زكريا الساجي أصول الحديث بالبصرة، ثم لما قدم بغداد أخذ عن حنبلية بغداد أموراً أخرى، وذلك آخر أمره، كما ذكره هو وأصحابه في كتبهم(3)، وقال الذهبي عندما ترجم للحافظ الساجي يقول: وعنه أخذ أبو الحسن الأشعري الأصولي تحرير مقالة أهل الحديث والسلف(4)، وقال في مكان آخر عن الساجي: أخذ عنه أبو الحسن الأشعري مقالة السلف في الصفات واعتمد عليها أبو الحسن في عدة تأليف(5)، ومن الذين أثبتوا للأشعري هذا اللقاء مع المحدث الحافظ زكريا الساجي، وجعلوه نقطة تحول كبيرة عند الأشعري(6)، الإمامان: ابن القيم(7) وابن كثير(8)، وغيرهما(9).

الوجه الثالث: تأليفه كتاب الإبانة وإثباته له:

إن آخر الكتب التي ألفها الأشعري رحمه الله هو كتاب الإبانة وقد ذكر في هذا الكتاب انتسابه للإمام أحمد رحمه الله، والتزامه بعقيدة السلف الصالح، واتباع أئمة الحديث، وذكر بعد هذا عقيدة السلف الصالح في أمور الدين، ولقد أثبت هذا الكتاب للأشعري جمع كثير من الأئمة، من المتقدمين والمتأخرين(10)، وأقرب العلماء زمناً بزمان الأشعري هو ابن النديم ت 385هـ فقد ذكر في كتابه الفهرست ترجمته للأشعري وذكر جملة من كتبه التي ألفها، ومنها كتاب "التبيين عن أصول الدين" وجاء بعده ابن

(1) انظر المنتقى للذهبي، تعليق محب الدين رقم 2 ص 41.

(2) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 49.

(3) الفتاوى (288/3).

(4) تذكرة الحافظ الذهبي (709/2).

(5) سير أعلام النبلاء (198/14).

(6) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 50.

(7) اجتماع الجيوش الإسلامية ص 97.

(8) البداية والنهاية (131/11).

(9) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 50.

(10) كتب الشيخ حماد الأنصاري رسالة أثبت فيها رجوع الأشعري إلى مذهب السلف.

عساكر وانتصر للأشعري، وأثبت له كتاب "الإبانة" ونقل منها كثيراً في كتابه "التبيين" للإشادة بحسن عقيدة الأشعري.

قال ابن عساكر عن الأشعري: وتصانيفه بين أهل العلم مشهورة معروفة، وبالإجادة والإصابة للتحقيق عند المحققين موصوفة، ومن وقف على كتابه المسمى "الإبانة" عرف موضعه من العلم والديانة (1) ثم جاء ابن درباس ت 659هـ، وألف كتاباً في الذب عن الأشعري وأثبت له كتاب الإبانة. وقال: أما بعد.. فاعلموا معشر الإخوان وفقنا الله وإياكم للدين القويم وهدانا جميعاً للصرراط المستقيم بأن كتاب "الإبانة عن أصول الديانة" الذي ألفه الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، هو الذي استقر عليه أمره فيما كان يعتقد، وبما كان يدين الله سبحانه وتعالى بعد رجوعه عن الاعتزال بمنّ الله ولطفه، وكل مقالة تُنسب إليه الآن مما يخالف ما فيه، فقد رجع عنها، وتبرأ إلى الله سبحانه وتعالى بها. وروى وأثبت ديانة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث الماضين، وقول أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين، وأنه ما دل عليه كتاب الله وسنة رسوله، فهل يسوغ أن يُقال: أنه رجع إلى غيره؟ فإلي ماذا يرجع تراه، يرجع عن كتاب الله وسنة نبي الله، خلاف ما كان عليه الصحابة والتابعون، وأئمة الحديث الماضيين، وقد علم أنه مذهبهم ورواه عنهم. هذا لعمرى ما لا يليق نسبته إلى عوام المسلمين كيف بأئمة الدين وقد ذكر هذا الكتاب، واعتمد عليه وأثبتته عن الإمام أبي الحسن رحمه الله وأثنى عليه بما ذكره فيه، وبرأه من كل بدعة نسبت إليه، ونقل منه إلى تصنيفه، جماعة من الأئمة الأعلام من فقهاء الإسلام، وأئمة القراء وحفاظ الحديث وغيرهم (2) ثم ذكر رحمه الله جماعة من هؤلاء الأئمة الذين أثبتوا كتاب "الإبانة" للأشعري ومنهم:

- إمام القراء أبو علي الحسن بن علي بن إبراهيم الفاسي ت 446هـ.
- الحافظ أبو عثمان الصابوني (ت 449هـ).
- الفقيه الحافظ أبو بكر البيهقي (ت 458هـ).
- الإمام الفقيه أبو الفتح نصر المقدسي ت 490هـ.
- الفقيه أبو المعالي مجلي صاحب كتاب الذخائر في الفقه ت 550هـ (3).
- وهناك جمع كثير من العلماء ممن أثبت كتاب "الإبانة" للأشعري، غير الذين

(1) تبيين كذب المفتري ص 28.

(2) رسالة الذب عن أبي الحسن الأشعري لابن درباس ص 107 تحقيق د. علي ناصر الفقيهي.

(3) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه ص 52.

ذكرهم ابن درباس ومنهم.

- الإمام ابن تيمية رحمه الله ت 728هـ.
- الحافظ الذهبي ت 748هـ وقال: وكتاب الإبانة من أشهر تصانيف أبي الحسن، شهره الحافظ ابن عساكر واعتمد عليه ونسخه بخطه الإمام محي الدين النووي (1).
- الإمام ابن القيم ت 571هـ (2).
- الحافظ ابن كثير ت 774هـ.
- العلامة ابن فرحون المالكي ت 799هـ (3). وهناك جمع كثير لا يُحصى عددهم من العلماء والأئمة من الذين أثبتوا كتاب الإبانة للأشعري وأنه آخر ما صنف (4).

وقد ذكر المؤرخون مجموعة من الأسباب في سبب رجوع أبي الحسن إلى مذهب أهل السنة وترك الاعتزال وأهمها رحمة الله به وهدايته له.

ب - سرّ عظمة الأشعري في التاريخ:

نهض أبو الحسن الأشعري بعد هذا التحول العظيم، يدعو إلى عقيدة أهل السنة، ويدافع عنها في حماسة وإيمان، ويرد على المعتزلة ويتبّعهم في مجالسهم ومراكزهم يحاول إقناعهم بما اقتنع به أخيراً من عقائد أهل السنة، ومذاهب السلف، وكان نشاطه في ذلك أعظم من نشاطه في السابق، وكان يقصدهم بنفسه يناظرهم، فكلم في ذلك فقد قيل له: كيف تُخالط أهل البدع وتقصّدهم بنفسك وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أولو رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إليّ، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنة ناصراً بالحجة (5)؟ وهذه الجهود العظيمة والمثابرة الصابرة في مناصرة مذهب أهل السنة تستحق الثناء والتقدير وكان أبو الحسن الأشعري مستواه العقلي أعلى من مستوى معاصريه وأقرانه، وكان صاحب نبوغ وابتكار في العقلية، وكان يرد على حُجج المعتزلة وعقائدهم في سهولة

(1) مختصر العلو ص 239.

(2) اجتماع الجيوش الإسلامية ص 113.

(3) الديباج المذهب ص 195.

(4) شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري ص 53.

(5) تبيين كذب المفتري ص 116.

وينفضها بمقدرة وثقة، كما يرد الأستاذ الكبير على شبه تلاميذه، ويحل مشاكلهم، وقد كان أبو الحسن الأشعري إماماً مجتهداً في علم الكلام، وأحد مؤسسيه وقد خضع كلُّ من جاء بعده من المتكلمين لعبقريته، وعمق كلامه، ودقة نظره وإصابه فكره (1).

ج - أبو الحسن الأشعري يشرح عقيدته التي يدين بها :

فيقول: وقولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا عليه السلام، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل - نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته - قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق، ورفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، وقمع به بدع المبتدعين، وزيع الزائغين، وشكَّ الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مُقَدَّم، وخليل معظم مضخَّم (2).

ولم تقتصر خدمة الأشعري على تأييد عقائد أهل السنة والسلف تأييداً إجمالياً، فقد كان الحنابلة والمحدثون قائمين به غير مقصِّرين فيه، إن عبقريته تتجلى في أنه أقام البراهين والدلائل العقلية والكلامية على هذه العقائد، وناقش المعتزلة والمتفلسفة عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها، وأسلوب يأفونه ويُجلونه، وبذلك أثبت أن هذا الدين وعقيدته الواضحة مؤيِّدان بالعقل، وأن العقل الصحيح يؤيد الدين الصحيح، ولا صراع بينهما (3) ولا تناقض.

- مصدر العقيدة عن أبي الحسن الأشعري :

كان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة والمسائل التي تتصل بالإلهيات وما وراء الطبيعة هو الكتاب والسنة، وما جاء به الأنبياء وليس العقل المجرد والمقياس والميتافيزيقا اليونانية، ولكنه لم يكن يرى السكوت والإعراض عن المباحث التي حدثت بتطورات الزمان، واختلاط هذه الأمة بالأمم والديانات والفلسفات الأجنبية، حتى تكونت على أساسها فرق ونحل، وكان يرى أن السكوت عن هذه المباحث يضُرُّ بالإسلام، ويُفقد مهابة السنة ويحمل على ذلك ضعف السنة العلمي والعقلي، وعجز علماء الدين وممثليه عن مواجهة هذه التيارات ومقاومة هذه الهجمات، ويَهْتَبِلُ أهل الفرق الضالة، فينفذون

(1) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (143/1، 144).

(2) المصدر نفسه ص 5.

(3) رجال الفكر والدعوة في الإسلام (147/1).

في أهل السنة والعقيدة الصحيحة، فينفثون فيهم، ويزرعون الشكوك، ويستميلون شبابهم الذكي المثقف إلى أنفسهم، وكان الأشعري مؤمناً بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، والطريق إلى معرفته هو الكتاب والسنة وما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم، وهذا مُفترق الطريق بينه وبين المعتزلة، فإنه يتجه في ذلك اتجاهاً معارضاً لاتجاه المعتزلة، ولكنه رغم ذلك يعتقد مخلصاً أن الدفاع عن هذه العقيدة السليمة، وغرسها في قلب الجيل الإسلامي الجديد، يحتاج إلى الحديث بلغة العصر العلمية السائدة، واستعمال المصطلحات العلمية، ومناقشة المعارضين على أسلوبهم العقلي، ولم يكن يسوغ ذلك فقط، بل يَعُدُّه أفضل الجهاد وأعظم القربات في ذلك العصر، وهذا مفترق الطرق بينه وبين - بعض - من الحنابلة والمحدثين الذين كانوا يتأمنون ويتخرجون من النزول في هذا المستوى (1)

س - بعض مؤلفات أبي الحسن الأشعري:

لم يقتصر أبو الحسن الأشعري على المناظرة والمعارضة، بل خَلَّف مكتبة كثيرة من مؤلفاته في الدفاع عن السنة، وشرح العقيدة الحسنة وقد أَلَّف تفسيراً للقرآن، أقل ما قيل في أجزاءه أنه في ثلاثين مجلداً، وقد ذكر بعض المؤلفين أن مؤلفاته تبلغ إلى ثلاثمائة مؤلف (2)، أكثرها في الرد على المعتزلة، وبعضها في الرد على مذاهب وفرق أخرى ومنها كتاب "الفصول" الذي رد على الفلاسفة والطبيعيين، والدهرية، والبراهمة، واليهود، والنصارى، والمجوس، وهو كتاب كبير يحتوي على اثني عشر كتاباً، وقد ذكر ابن خلكان من مؤلفاته كتاب "اللمع" وإيضاح البرهان" والتبيين عن أصول الدين" و"الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل". وله - عدا العلوم العقلية والكلام - مؤلفات في علوم الشريعة منها: "كتاب القياس" "كتاب الاجتهاد" و"خبر الواحد" وكتاب في الرد على ابن الراوندي في إنكاره للتواتر، وقد ذكر في كتابه "العمد" مؤلفاته التي فرغ منها سنة 320هـ يعني قبل وفاته بأربع سنوات، وهي ثمان وستون مؤلفاً، وكثير منها يقع في عشرة مجلدات أو أكثر، وقد أَلَّف في آخر حياته كتباً كثيرة وبدل كتابه "مقالات الإسلاميين" على أنه لم يكن متكلماً، فحسب، بل كان مؤرخاً أميناً لعلم العقائد، وقد اعترف بدقته وأمانته وتحريه للصدق في النقل المستشرقون (3)، وكتب

(1) رجال الفكر والدعوة (148/1).

(2) تبيين كذب المقترري ص 136.

(3) رجال الفكر والدعوة (150/1).

الفرق والديانات تدلُّ على أمانته ودقته في النقل(1).

ش - اجتهاده في العبادة:

لم يكن أبو الحسن الأشعري رجل علم وعقل وبحث ونظر فحسب، بل كان - مع وصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والعقل - مجتهداً في العبادات متحلياً بالأخلاق الفاضلة، وذلك ما يمتاز به العلماء الأقدمون؛ فإن اشتغالهم بالعلم لم يكن مانعاً عن الاجتهاد في العبادات والحرص على الطاعات وكانوا يجمعون بين الدراسة والإفادة والعبادة والزهادة. قال أحمد بن علي الفقيه: خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رحمه الله فلم أجد أروع منه، وأغضَّ طرفاً، ولم أر شيخاً أكثر حياءً منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة (2). ويحكي أبو الحسين السَّروي من عبادته في الليل واشتغاله، ما يدل على حرصه وقوته في العبادة (3)، قال ابن خلكان: وكان يأكل من غلَّة ضيعة وقفها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً، هكذا قاله الخطيب (4).

ع - عقيدة أبي الحسن الأشعري التي مات عليها:

قال أبو الحسن الأشعري هذه حكاية جملة ما عليه أهل الحديث والسنة:

- 1- الإقرار بالله وملائكته ورسوله وأن محمداً عبده ورسوله.
- 2- وأن الجنة حق وأن النار حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور.
- 3- وأن الله سبحانه وتعالى على عرشه كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} {طه، آية: 5}.
- 4- وأن له يدين بلا كيف كما قال: {خَلَقْتُ يَدَيَّ} {طه، آية: 75}.
- 5- وأن له عينين بلا كيف كما قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} {القمر، آية: 14}.
- 6- وأن له وجهاً كما قال: {وَيَقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} {الرحمن الآية: 27}.
- 7- وأن أسماء الله لا يقال إنها غير الله كما قالت المعتزلة والخوارج.

(1) المصدر نفسه (150/1).

(2) تبيين كذب المفتري ص 141.

(3) رجال الفكر والدعوة (150/1).

(4) وفيات الأعيان (412/1).

- 8- وأقروا أن الله سبحانه عالماً كما قال: **{أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}** (النساء، آية: 166) وقال: **{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ}** (فاطر، آية: 11).
- 9- وأثبتوا السمع والبصر ولم ينفوا ذلك عن الله كما نفته المعتزلة.
- 10- وأثبتوا الله القوة كما قال: **{أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}** (فصلت، آية: 15).
- 11- وقالوا: إنه لا يكون في الأرض من خير ولا شر إلا ما شاء الله.
- 12- وأن الأشياء تكون بمشيئة الله، كما قال عز وجل: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ}** (التكوير، آية: 29). وكما قال المسلمون: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون.
- 13- وقالوا: إن أحداً لا يستطيع أن يفعل شيئاً قبل أن يفعله أو يفعل شيئاً علم الله أنه لا يفعله.
- 14- وأقروا أنه لا خالق إلا الله وأن سيئات العباد يخلقها الله وأن أعمال العباد يخلقها الله عز وجل وأن العباد لا يقدر أن يخلقوا شيئاً.
- 15- ويقولون إن القرآن كلام الله غير مخلوق.
- 16- والكلام في الوقت واللفظ من قال باللفظ أو الوقف فهو مبتدع عندهم لا يقال اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق.
- 17- ويقولون إن الله سبحانه يرى بالأبصار يوم القيامة كما يرى القمر ليلة البدر يراه المؤمنون ولا يراه الكافرون لأنهم عن الله محجوبون، قال الله عز وجل: **{كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}** (المطففين، آية: 15) وأن موسى عليه السلام سأل الله سبحانه الرؤية في الدنيا وأن الله سبحانه تجلى للجبل فجعله دكا فأعلمه أنه لا يراه في الدنيا بل يراه في الآخرة.
- 18- ولا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كنعو الزنا والسرقه وما أشبه ذلك من الكبائر ومعهم بما هم من الإيمان مؤمنون وإن ارتكبوا الكبائر.
- 19- والإيمان عندهم هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالقدر خيره وشره حلوه ومره وأن ما أخطأهم لم يكن ليصيبهم وما أصابهم لم يكن ليخطئهم.
- 20- والإسلام هو أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله على ما جاء في الحديث، والإسلام عندهم غير الإيمان.
- 21- ويقرون بأن الله سبحانه مقلب القلوب.

- 22- ويقرون بشفاعة رسول الله ﷺ وأنها لأهل الكبائر من أمته، وبعداب القبر، وأن الحوض حق والصراط حق، والبعث بعد الموت حق.
- 23- والمحاسبة من الله عز وجل للعباد حق والوقوف بين يدي الله حق.
- 24- ويقرون بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ولا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق.
- 25- ويقولون: أسماء الله هي الله.
- 26- ولا يشهدون على أحد من أهل الكبائر بالنار ولا يحكمون بالجنة لأحد من الموحيين، حتى يكون الله سبحانه ينزلهم حيث شاء ويقولون: أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم، ويؤمنون بأن الله سبحانه يخرج قوماً من الموحيين من النار على ما جاءت به الروايات عن رسول الله ﷺ.
- 27- وينكرون الجدل والمرء في الدين والخصومة في القدر والمناظرة فيما يتناظر فيه أهل الجدل ويتنازعون فيه من دينهم بالتسليم للروايات الصحيحة والآثار التي رواها الثقات عدلاً عن عدل حتى ينتهي ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا يقولون كيف ولا لم لأن ذلك بدعة.
- 28- ويقولون: إن الله لم يأمر بالشر بل نهى عنه وأمر بالخير ولم يرض بالشر وإن كان مريداً له.
- 29- ويعرفون حق الذين اختارهم الله سبحانه لصحبة نبيه ﷺ ويأخذون بفضائلهم ويمسكون عما شجر بينهم صغيرهم وكبيرهم.
- 30- ويقدمون أبا بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علياً رضوان الله عليهم.
- 31- ويقرون أنهم الخلفاء الراشدون المهديون أفضل الناس كلهم بعد النبي ﷺ.
- 32- ويصدقون بالأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ يَتَرَلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟» كما جاء الحديث عن رسول الله ﷺ.
- 33- ويأخذون بالكتاب والسنة كما قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.
- 34- ويرون اتباع من سلف من أئمة الدين لا يبتدعون في دينهم ما لم يأذن به الله.
- 35- ويقرون أن الله سبحانه يجيء يوم القيامة كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ (الفجر، آية: 22).

- 36- وأن الله يقرب من خلقه كيف شاء كما قال: {وَوَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ} (ق، آية: 16).
- 37- ويرون العبد والجماعة خلف كل إمام بر وفاجر.
- 38- ويثبتون المسح على الخفين سنة ويرونه في الحضر والسفر.
- 39- ويثبتون فرض الجهاد للمشركين منذ بعث الله نبيه ﷺ إلى آخر عصابة تقاتل الدجال وبعد ذلك.
- 40- ويرون الدعاء لأئمة المسلمين بالصلاح وأن لا يخرجوا عليهم بالسيف وأن لا يقاتلوا في الفتنة.
- 41- ويصدقون بخروج الدجال وأن عيسى ابن مريم يقتله.
- 42- ويؤمنون بمنكر ونكير والمعراج والرؤيا في المنام.
- 43- وأن الدعاء لموتى المسلمين والصدقة عنهم بعد موتهم تصل إليهم.
- 44- ويصدقون بأن في الدنيا سحرة وأن الساحر كافر كما قال الله، وأن السحر كائن موجود في الدنيا.
- 45- ويرون الصلاة على كل من مات من أهل القبلة برهم، وفاجرهم وموارثتهم.
- 46- ويقرون أن الجنة والنار مخلوقتان.
- 47- وأن من مات مات بأجله وكذلك من قتل قتل بأجله.
- 48- وأن الأرزاق من قبل الله سبحانه يرزقها عباده حلالاً كانت أم حراماً.
- 49- وأن الشيطان يوسوس للإنسان ويشككه ويخبطه.
- 50- وأن الصالحين قد يجوز أن يخصهم الله بآيات تظهر عليهم.
- 51- وأن السنة لا تنسخ القرآن (1).
- 52- وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد.
- 53- وأن الله عالم ما العباد عاملون وكتب أن ذلك يكون وأن الأمور بيد الله.
- 54- ويرون الصبر على حكم الله والأخذ بما أمر الله به والانتهاه عما نهى عنه وإخلاص العمل والنصيحة للمسلمين، ويدينون بعبادة الله في العابدين والنصيحة بجماعة المسلمين، واجتناب الكبائر والزنا وقول الزور والعصبية والفخر

(1) مسألة فيها خلاف يطول عند أهل السنة.

والكبر والإزراء على الناس والعجب.

- 55- ويرون مجانبة كل داع إلى بدعة.
- 56- ويرون التشاغل بقراءة القرآن وكتابة الآثار والنظر في الفقه مع التواضع وحسن الخلق وبذل المعروف وكف الأذى وترك الغيبة والنميمة والسعاية وتفقد المأكل والمشرب.
- 57- فهذه جملة ما يأمرون به ويستعملونه ويروونه وبكل ما ذكر من قولهم نقول وإليه نذهب وما توفيقنا إلا بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل وبه نستعين وعليه نتوكل وإليه المصير (1).

هذه عقيدة الإمام الأشعري التي استقر عليها وصرح بها، وهي من الآثار التي تركها بعد وفاته وقد ساهمت بلا شك في توعية الأمة وتربيتها على أصول أهل السنة والجماعة سواء في المدارس النظامية في عهد السلاجقة أو في عهد الزنكيين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين وإلى يومنا هذا ومن الإنصاف العلمي القول بأن المذهب الأشعري لم يستقر على ما مات عليه الإمام أبو الحسن الأشعري بل حدث تطور في المذهب الأشعري بحيث أن أقوال الأشاعرة تعددت واختلفت في مسائل عديدة، ومن أشهر الذين اجتهدوا وخالفوا أبا الحسن الأشعري، في بعض المسائل، أبي بكر الباقلاني وابن فورك وعبد القاهر البغدادي، والبيهقي والقشيري، والجويني والغزالي وغيرهم على درجات متفاوت بينهم في ذلك، وقد قام الدكتور عبدالرحمن بن صالح بن صالح المحمود بتتبع هذا التطور بنوع من التفصيل في كتابه القيم موقف ابن تيمية من الأشاعرة.

- وفاته :

وكانت وفاته سنة 324هـ ودفن ببغداد في مشروع الزوايا (2)، ونودي على جنازته: اليوم مات ناصر السنة (3). هذه هي العقيدة السنية التي سارت عليها الدولة الأيوبية، ولقد قام علماء السنة بتفنيد فكرة النص التي قال بها الشيعة الرافضة وبنوا عليها مذهبهم في الإمامة، وأوضحوا تهافتها اعتماداً على ما تم من اختيار أبو بكر ومبايعة المسلمين له في يوم السقيفة (4). وفي نفس الوقت، راح دعاة السنة يؤكدون شرعية خلفاء بني

(1) اعتقاد أهل السنة أصحاب الحديث شرح جملة ما حكاه عنهم أبو الحسن الأشعري وقرّره في مقالاته د.

محمد عبدالرحمن الخميس ص 11 إلى 171 وقد قام الدكتور بشرح هذه الأصول.

(2) وفيات الأعيان (412/1).

(3) رجال الفكر والدعوة (151/1).

(4) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 150.

العباس السنيين في الخلافة، وحكم جميع بلاد المسلمين، ويظهرون مثالب الفكر الباطني الإسماعيلي وما انطوى عليه من مغالطات وتدليس، ويبينون بطلان النسب الفاطمي وانتسابهم لعلي ابن أبي طالب.

ولقد استفاد الأيوبيون من السلاجقة والزنكيين في وسائل نشر العقيدة السنية الإسلامية بمصر وفي أنحاء الدولة الأيوبية وقد كانت العقيدة الإسلامية السنية ووسائل نشرها من ناحية والفقه الشافعي السني من ناحية أخرى كانت تمثل في العصر الأيوبي، إحدى شقي الدعوة السنية التي نشرها الأيوبيون بعد قضائهم على الدعوة الشيعية الإسماعيلية (1).

5 - الدراسات الفقهية:

اهتم الأيوبيون بهذا الفرع من فروع الثقافة السنية اهتماماً كبيراً، وذلك من خلال المدارس الكثيرة التي أنشئوها، وجعلوها وقفاً على فقهاء مذهب بعينه أو وقفاً مشتركاً بين أكثر من مذهب، كما هو الحال في المدرسة الفاضلية التي أوقفت على الشافعية والمالكية، والمدرسة الظاهرية بحلب التي أوقفت على الشافعية والحنفية وكذلك المدرسة الصالحية بالقاهرة التي وقفها الصالح نجم الدين أيوب على المذاهب الفقهية السنية الأربعة، إلا أن عناية الأيوبيين بمدارس الشافعية كانت أكثر على اعتبار أن مذهب الشافعي كان المذهب الرسمي للدولة، وهو الذي عليه القضاء ويعتنقه جميع الأيوبيين لم يشذ عنهم في ذلك سوى الملك المعظم عيسى بن العادل الذي كان حنفي المذهب واقتدى به بنوه في اتباعه ويضاف إلى هذا أن الذين تولوا المناصب الرئيسية في دولة صلاح الدين كانوا من الشافعية، منهم على سبيل المثال: القاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، ويؤكد هذا ما أشرنا إليه من قبل وهو أن نور الدين الحنفي المذهب كان معظم رجاله من الشافعية وكثير، منهم تخرج من المدارس النظامية، كالقاضي كمال الشهرزوري، وابن أبي عصرون (2)، وغيرهما.

هذه هي العناصر الأساسية للثقافة السنية التي حفلت بها المؤسسات الفكرية في عصر الأيوبيين، اعتنى الأيوبيون بنشرها، والتمكين لها وبخاصة في مصر، نتيجة لظروفها التاريخية السابقة، حيث كانت المعقل الرئيسي للدعوة الشيعية الإسماعيلية فقد تركزت عناصر الثقافة السنية حول القرآن الكريم، والحديث الشريف والدراسات الفقهية

(1) المصدر نفسه ص 136، 163.

(2) التاريخ السياسي والفكري ص 244.

السنية، وأصول العقيدة، ثم تعدت ذلك إلى كل ما يخدم هذه الثقافة من نحو، وأدب، وعلوم لغة، ولم تكن للدراسات العقلية الفلسفية فيها نصيب بل إن من كانوا يسعون لتحصيل هذا النوع من الثقافة كانوا يحصلونه على استحياء، بسبب استهجان الاشتغال بهذه العلوم من الأوساط العلمية السنية وكان المشتغلون بها لا يلقون تقبلاً اجتماعياً ومرفوضين من البيئات العلمية السنية التي يحلون بها (1)، والأمثلة على هذا كثيرة منها: أن صلاح الدين كان مبغضاً للفلاسفة والمعتلة والدهرية (2). وعلى ما يبدو أن العداء للعلوم الفلسفية في هذه البيئة كان له سببان:

الأول: أن هذا الموقف كان رد فعل ضد المذهب الشيعي الذي اعتمد اعتماداً كبيراً على الفلسفة في تكوين عقائده وفي الدعوة إليها، ومن ثم أنكرها علماء السنة، إيماناً منهم بأن المذهب السني واضح بسيط يسهل على الناس فهمه وإدراكه دون حاجة إلى الاستعانة بالفلسفة أو المنطق كما ذهب إلى ذلك ابن الصلاح في فتواه (3).

الثاني: أن الفلسفة كانت فقدت بريقها، ونزلت من عليائها منذ أن وجه إليها الإمام الغزالي وابل سهامه في كتابه: تهافت الفلاسفة، وكان تأثير الغزالي ما يزال قوياً مسيطراً على البيئات السنية في العصور التي تلت عصره (4).

رابعاً: إحياء الأيوبيين لدولة الخلافة العباسية:

استطاعت الدولة الأيوبية في نهاية القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع الهجري إحياء النفوذ السياسي لدولة الخلافة العباسية في أغلب أرجاء بلاد المشرق الإسلامي؛ فنعد قضاء الأيوبيين على الخلافة الفاطمية بمصر سنة 567هـ/1171م وقد نجحوا في سنة 569هـ/1173م، في فتح بلاد اليمن وكانت تعد من أقدم وأقوى معاقل الدعوة الفاطمية، واستطاعوا القضاء على الداعي الفاطمي بها عبد النبي بن مهدي، وخطبوا لبني العباس على منابر اليمن؛ ومن اليمن مدوا نفوذهم إلى الحرمين الشريفين، وخطبوا على منابرهما لخليفة بغداد (5)، الذي اكتمل له بهذا الأمر مظاهر نفوذه الروحي في العالم الإسلامي لكونه أصبح حامي حمى الحرمين الشريفين، بعد تفرد الخلافة الفاطمية بهذا

(1) المصدر نفسه ص 248.

(2) سيرة صلاح الدين ص 10.

(3) الحياة العلمية في مصر والشام ص 6.

(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 251.

(5) رحلة بن جببر ص 73 تاريخ مصر الإسلامية زمن بني أيوب ص 183.

الأمر دون بني العباس لفترة طويلة (1)، وثمة عدة إشارات ذكرها المؤرخون المصريون واليمنيون والشوام المعاصرين للفتح الأيوبي لليمن (2)، توضح أن هذا الفتح كان خطوة أيديولوجية للإجهاز على الدعوة الفاطمية هدف إليها السلاجقة، ثم الزنكيين ونفذها بنو أيوب، ولم يكن بحال من الأحوال تأييداً لاستقلال الأيوبيين عن نور الدين زنكي (3).

وقد حرص الأيوبيون عند فتحهم لليمن على إدخال كتب الدعوة السنية مع جيوشهم، والعمل على نشرها في بلاد اليمن، وذلك للقضاء على كتب الدعوة الشيعية هناك، مثل كتب المعتزلة والزيدية والفاطميين التي كانت قد اجتلبت إلى بلاد اليمن من بلاد الديلم في عهد أئمة اليمن الزيدية وأبان النفوذ الفاطمي على بلاد اليمن (4)، ومن ناحية أخرى حاول الأيوبيون ضم المغرب الإسلامي وانتزاعه من الموحديين لصلاح العباسيين، ولقد حرص صلاح الدين على احترام الخلفاء العباسيين وكان منهجه امتداداً لمنهج نور الدين الذي وصفه سبط بن الجوزي بأنه: كان يتدين بطاعة الخليفة (5)، وكان هذا الاحترام نابعاً من إيمانه بوجود الطاعة للخلفاء العباسيين ويظهر هذا بوضوح في إحدى رسائل القاضي الفاضل إلى الخليفة الناصر بعد استيلاء صلاح الدين على حلب إذ جاء فيها: وهذه المقاصد الثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والكف عن مظالم عباد الله، والطاعة لخليفة الله هي مراد الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمة من الدنيا إذا منحها، والله العالم أنه لا يقاتل لعيش أئين من عيش ولا يريد إلا هذه الأمور التي توسم أنها تلزم (6)، وعندما أرسل الخليفة الناصر لدين الله إلى صلاح الدين يعاتبه في تلقيه بالملك الناصر مع أنه لقب أمير المؤمنين أرسل إليه يعتذر بأن ذلك كان من أيام الخليفة المستضيء وأنه إن لقبه أمير المؤمنين بلقب آخر فهو لا يعدل عنه، وتأدب مع الخليفة غاية الأدب (7). وسار على هذا النهج - تجاه الخلفاء - معظم الأيوبيين (8).

خامساً: حماية سلاطين بني أيوب لطريق الحج والحرمين الشريفين:

- (1) النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، جمال سرور ص 183.
- (2) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 183.
- (3) المصدر نفسه ص 183.
- (4) المصدر نفسه ص 183.
- (5) مرآة الزمان (213/8) التاريخ السياسي والفكري ص 251.
- (6) كتاب الروضتين (48/2) التاريخ السياسي والفكري ص 252.
- (7) حسن المحاضرة (20/2) طبقات الشافعية (341/4).
- (8) التاريخ السياسي والفكري لمذهب أهل السنة ص 252.

يرجع الفضل بعد الله إلى عودة السيادة العباسية على الحجاز إلى مساعي السلاجقة لنزع الأماكن المقدسة من هيمنة الدولة الفاطمية الشيعية، وفي عهد نور الدين زنكي ظهرت جهوده الميمونة في الإحسان لأهل مكة والمدينة، وبعث العساكر لحفظ المدينة النبوية، وأقطع أمير مكة إقطاعاً، وأقطع أمراء العرب إقطاعات لحفظ الحج فيما بين دمشق والحجاز، وأكمل سور المدينة النبوية، واستخرج لها العين، فدعي له بالحرمين على منبريهما بعد اسم الخليفة العباسي (1)، وثمة معلومة على جانب كبير من الأهمية لدارس تاريخ الأسرة الأيوبية ونشأتها تشير إلى أن تولى مؤسس هذه الأسرة، لإمارة لواء الحج الشامي، إبان خدمتها لنور الدين زنكي، وكان من أهم عوامل استقواء هذه الأسرة الطموحة، فنعرف أن نجم الدين أيوب، كبير البيت الأيوبي، كان قد تولى إمارة الحج الشامي لنور الدين زنكي منذ سنة 551هـ/1156م وقد ورثه في هذا المنصب أخوه أسد الدين شيركوه الذي وصف أنه قد تقدم عند نور الدين زنكي، وبعثه أمير الحاج من دمشق (2). وكان شيركوه في حياته قد أنفق من أمواله المبالغ الضخمة، في سبيل إقامة الشعائر الدينية والخيرية بالحرمين هو وصديقه الوزير جمال الدين وزير صاحب الموصل، وأوصى صديقه بأن يدفن في تربة بجوار المسجد النبوي بالمدينة المنورة (3)، وقد حرص ملوك بني أيوب على تحقيق هذه الأمنية والوصية، فقاموا بنقل رفاة نجم الدين أيوب وأخيه شيركوه بعد دفنهما بمصر، وأعادوا دفنهما بالمدينة، طبقاً لوصيتهما (4).

واستمرت السيادة العباسية على الحجاز، على يد سلاطين وملوك الدولة الأيوبية، وتبدت مظاهر عودة هذه السيادة في الخطبة للخليفة العباسي بالحرم المكي، قبل أمير مكة، وقبل السلطان الأيوبي صاحب مصر، وملك اليمن من بني أيوب، وفي إرسال التقاليد الخليفة بالإمارة لكل من أمير مكة والمدينة، صُحبة أمير الحج العراقي، وكان تقليد أو عزل أمير المدينة ومكة أو أولياء عهدهما يقرأ بجوار المسجد النبوي (5)، وإرسال كسوة الكعبة كل سنة بشعار بني العباسي وهو السواد وبُطرُز حمراء تحمل اسم الخليفة العباسي وعبارات دعائية له (6)، كما تولى خلفاء بني العباس، عمارة الحرم

(1) الذهب المسبوك نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 203.

(2) تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب ص 204.

(3) مرآة الزمان (250/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 204.

(4) مرآة الزمان (278/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 204.

(5) مرآة الزمان (524/8، 611) تاريخ مصر ص 205.

(6) تاريخ مصر الإسلامية ص 205.

المكي، والمسجد النبوي. كذلك كان الخليفة العباسي وحده، هو صاحب الحق في رفع لواءه يوم الوقوف بعرفات (1)، وتأكيداً لإشراف الخلافة العباسية على الحرم المكي، كان أمير الحج العراقي يقوم بنفسه بكسوة الكعبة مع خواصه (2)، كما كانت خلع الخليفة شعار السواد العباسي، ترسل من بغداد إلى خطيب الحرم المكي، شأنه شأن خطباء البلاد التابعة للخلافة العباسية على حد قول ابن جبير، وذلك كي يلبسها عند صعوده للخطبة الجامعة (3).

1 - صلاح الدين الأيوبي خادم الحرمين الشريفين:

ورث صلاح الدين الأيوبي عن أستاذه نور الدين زنكي، السلطنة العامة، ورسالته في توحيد الجبهة الإسلامية لجهاد الصليبيين، عن طريق إحياء الخلافة العباسية، ونصرة الدعوة السنية، وورث عن أستاذه أيضاً مهمة الحجاج وتأمين طريق الحج، فأمر في سنة 572هـ بإبطال الغفارة، التي كانت تؤخذ بجدة من المسافرين على طريق البحر الأحمر، و عوض صاحب مكة في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمح تحمل إليه في البحر، ويحمل مثلها فتفرق في أهل المارستان بمكة، كما أوقف على الحجاج وعلى الحرمين الأوقاف (4)، وذلك للصرف على مؤنتهم إبان أداء الفريضة (5)، كما أقطع أمير مكة الإقطاعات بصعيد مصر وباليمن (6)، وأيضاً أوقف على أمير المدينة الأمير جماز وأولاده أوقافاً بصعيد مصر، لم تذكرها المصادر الأيوبية وإن أكدتها وثائق المحكمة الشرعية، المحفوظة اليوم بسجلات، مصلحة الشهر العقاري (7)؛ وقد شفع صلاح الدين ذلك برفع جميع المكوس، وهي ضرائب غير شرعية كانت تجبي من التجار، عن الحجاج، فتسهل سبيل الحج بعد أن كاد أن ينقطع، ولم يعد في استطاعة الحجاج أداء فريضة الحج (8)، وكل هذه الأيادي البيضاء التي أسدها صلاح الدين لحجاج بيت الله الحرام جعلت منه حامي حمى الحرمين الشريفين، وهو مظهر من مظاهر الزعامة

(1) النجوم الزاهرة (105/6) تاريخ مصر الإسلامية ص 205.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص 206، رحلة ابن جبير ص 157، 158.

(3) المصدر نفسه ص 206.

(4) مرآة الزمان (338/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 207.

(5) تاريخ مصر الإسلامية ص 207 رحلة ابن جبير ص 30، 31.

(6) المصدر نفسه ص 207.

(7) المصدر نفسه ص 208.

(8) المصدر نفسه ص 208.

السياسية في العالم الإسلامي كله (1).

وقد تأثر العالم الإسلامي بجهود صلاح الدين ولذلك عندما يذكر صلاح الدين بالدعاء على منابر الحرمين بعد الخليفة العباسي وأمير مكة، تخفق الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان، وإذا أحب الله يوماً عبده، ألقى عليه محبة الناس، وحق ذلك عليهم لما يبذله من جميل الاعتناء بهم، وحسن النظر لهم، ولما رفعه من وظائف المكوس عنهم (2)، ويقول ابن جبير بعد ذكره لدعاء الخطيب لصلاح الدين: أنه ذي المآثر الشهيرة، والمناقب الشريفة، فإذا انتهى ذكره بالدعاء، ارتفعت أصوات الطائفتين بالتأمين، بألسنة تمدها القلوب الخالصة والنيات الصادقة، وتخفق الألسنة بذلك خففاً، يذيب القلوب خشوعاً، لما وهب الله لهذا السلطان العادل من الثناء الجميل، وألقى عليه من محبة الناس، وعباد الله شهدائه في أرضه (3).

يقول ابن جبير: أعلمنا بأن كتابه (صلاح الدين) وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله، التوجيه بالحاج والتأكيد في مبرتهم وتأسيسهم، ورفع أيدي الاعتداء عنهم وإلا يعاز في ذلك إلى الخدام والاتباع. وقال: إنما نحن وأنتم متقبلون في بركة الحاج، فتأمل هذا المنزع الشريف والمقصد الكريم، وإحسان الله يتضاعف إلى من أحسن إلى عباده واعتناؤه موصول لمن جعل همه الاعتناء بهم، والله عز وجل كفيل بجزاء المحسنين (4). والواقع أن صلاح الدين لم يدخر وسعاً لاستمرار تأمين طريق الحج بحيث جعل هذا الأمر هجيراه، ودام على مكاتبه أمير مكة يوصيه برعاية الحج عند وصولهم إلى الحرم المكي (5)، كما كاتب أمير برقة من قبله، يوصيه بحماية الحج المغاربية والأندلسيين المارين بولايتيه (6)، كما حرص على تبادل السفارات الودية مع أمير المدينة النبوية وتعظيم رسوله والاعتزاز بهداياه، لكونها من قبل أمير المدينة النبوية الشريفة (7).

2 - حماية صلاح الدين لطريق الحج البري لحجاج مصر والمغرب، والأندلس :

(1) المصدر نفسه ص 209.

(2) رحلة ابن جبير ص 73 تاريخ مصر الإسلامية ص 210.

(3) المصدر نفسه ص 80 تاريخ مصر الإسلامية ص 210.

(4) رحلة ابن جبير ص 74.

(5) تاريخ مصر الإسلامية ص 210.

(6) المصدر نفسه ص 210.

(7) صبح الأعشى (59/1 - 61) تاريخ مصر ص 210.

أدرك الصليبيون خطورة فريضة الحج، كركن أساسي من أركان الإسلام يحقق للمسلمين الوحدة الروحية، ويوثق بينهم روابط اجتماعية وفكرية كفيلة بتعصيد شعورهم بالولاء إلى أمة واحدة، وكيان اجتماعي واحد؛ فعمدوا أحياناً إلى مهاجمة قوافل الحج والتجارة المصرية، المارة عبر صحراء سيناء، وفي طريق الحجاج الشهير ونهبها (1)، مما أدى إلى تعطيل الطريق البري للحجاج، الوافدين من الأندلس والمغرب ومصر، واضطرابهم إلى سلوك طريق طويل يبدأ من الإسكندرية إلى القسطنطينية، إلى مدينة قوص بصعيد مصر ثم منها يخترق الحجاج صحراء عيذاب، حتى يصلوا إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، ومنها يركبون السفن الصغيرة المعروفة بـ "الجلاب" حتى ميناء جدة؛ وكانت هذه الرحلة طويلة شاقة عانى منها الحجاج الأمرين (2)، وكان قطع الصليبيين لطريق الحج البري عبر سيناء، قد تم لهم بعد استيلائهم على حصن الكرك؛ مما جعل استرداد هذا الحصن من أهم أهداف نور الدين زنكي (3)، ثم صلاح الدين الأيوبي حين كان نائبه بمصر، قبل استقلاله بالسلطنة؛ لذلك عمد نور الدين إلى محاصرة الكرك حصاراً مزدوجاً من ناحية الشام ومن ناحية مصر في نفس الوقت، وكاد يتم له (4) استرداده، وحين استقرت السلطنة لصلاح الدين، جعل الكرك هدفاً لأول غزوة من مغازيه للفرنج ليصل طريق القوافل والتجارة عبر سيناء، بين مصر والشام، ويؤمن طريق الحج المصري البري بعد انقطاعه ولا شك أن حملة أرنات البحرية على البحر الأحمر ومحاولتها الوصول إلى الأراضي الحجازية، واختطاف جثمان النبي الكريم ﷺ، كانت على علم تام بأهمية حج المسلمين إلى الأراضي الحجازية، وزيارة المدينة النبوية والمسجد النبوي الشريف. ولم يقصر لؤلؤ قائد الأسطول المصري في أسر هؤلاء الفرنج، وإدخالهم إلى القاهرة في هيئة مزريية، وعلى صورة من الذلة والمهانة وصفها لنا ابن جبير؛ ثم أرسل لؤلؤ بعض هؤلاء الأسرى إلى المدينة المنورة، حيث ذبحوا ذبحاً (5)، فلا غرو أن لقب صلاح الدين بـ "خادم الحرمين الشريفين" و"منقذ بيت المقدس من أيدي المشركين" (6)؛ وليس أدل على الأهمية العظمى التي أولاها العالم الإسلامي، لتأمين طريق الحجاج المسلمين إلى مكة وحرص الأيوبيين على

(1) مرآة الزمان (415/8، 416).

(2) رحلة ابن جبير ص 38 - 53.

(3) الباهر ص 158 تاريخ مصر الإسلامية ص 212.

(4) تاريخ مصر الإسلامية ص 212.

(5) مفرج الكروب (127/2 - 132).

(6) النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

إنجازها مما صرح به العماد الأصفهاني مؤرخ صلاح الدين، من أن تأمين طريق الحج إلى مكة من أهم دوافع صلاح الدين، لفتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين (1).

3 - الإشراف المباشر لملوك بني أيوب على موسم الحج:

داوم ملوك بني أيوب، على حماية طريق الحج وتأمينه، وحماية لواء الحج العراقي، الممثل لسيادة الخليفة الروحية على العالم الإسلامي، وكان هذا عادة ما يكون من حظ أيوبي اليمن وذلك حتى في حياة صلاح الدين، فكان يخطب لهم بالحرمين بعد صلاح الدين سلطان مصر (2)، ففي سنة 582هـ/1186م وصل سيف الإسلام طشتكين ملك اليمن الأيوبي بنفسه إلى الكعبة، ليمنع الأذان الشيعي بها بحي على خير العمل، وليمنع العبيد الموالين لأمير مكة الذين يأخذون الحجاج؛ وطلب مفتاح الكعبة من أمير مكة، ليكون هو الحامي للحرم المكي من الناحية الفعلية؛ وذلك بعد أن حاول أمير مكة إغلاق باب الكعبة، وإعطاء مفتاحه لسنته من بني شيبه، الذين ذكر الرسول ﷺ، أنه سيبقى في أيديهم إلى يوم الدين، حتى يرغم طشتكين على العودة دون طلب مفتاح الكعبة، فهدد طشتكين بأخذه قسراً، وهنا أذعن أمير مكة، وسلم المفتاح لطشتكين، الذي سلمه بدوره لبني شيبه (3).

ومما يؤكد اهتمام سلاطين بني أيوب بموسم الحج ما ذكره مؤرخو سيرة صلاح الدين من استحداثه رسوماً خاصة باستقبال موكب الحج الشامي، وذلك خلال إقامته بدمشق فكان صلاح الدين يركب ركوباً عسكرياً، مرتدياً الزي العسكري الكامل، ويخرج في احتفال عام، ويقطع به شوارع دمشق، سالكاً طرقاً محددة (4)، وإذا كان المؤرخون قد لاحظوا، أن أحداً من سلاطين مصر الأيوبية، لم يحج بنفسه لانشغالهم الدائم بجهاد الصليبيين، فقد حج من أيوبي اليمن الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين، وفتح اليمن، وأول ملوكها (5)؛ ثم الملك المسعود المعروف بأفسييس، ابن الملك الكامل سلطان مصر (6)، وحج من أيوبي الشام، الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر، صاحب دمشق، والملك الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب الكرك

(1) الفتح للعماد ص 191 تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

(2) رحلة ابن جبير ص 80.

(3) مرآة الزمان (388/8) تاريخ مصر الإسلامية ص 213.

(4) النوادر السلطانية نقلاً عن تاريخ مصر الإسلامية ص 226.

(5) الذهب المسبوك ص 70 - 73، تاريخ مصر ص 227.

(6) تاريخ مصر ص 227.

(1)

لقد حاز الأيوبيون منذ عصر صلاح الدين، شرف حماية فريضة الحج والإشراف على الحرمين الشريفين وتعزيد النفوذ السياسي لأمير لواء الحج العراقي على بلاد الحجاز، كما أصبحت السلطنة الأيوبية هي حامية الدعوة العباسية والعاملة على نشر دعوتها في جميع ديار الإسلام، سواء في ممتلكات الدولة الفاطمية في نفوذ دولة الموحدين بالمغرب، وفوق ذلك في البلاد الإسلامية بالشام التي يتم استردادها من الصليبيين، ولا ريب أن تفرد سلاطين بني أيوب بالنهوض بأعباء الدعوة العباسية، وحماية الخليفة العباسي، وإلزام ملوك الأطراف إظهار الطاعة والتبعية له قد أمد السلطنة الأيوبية بسند شرعي، جعلها تتصدر الزعامة السياسية للعالم الإسلامي (2).

والجدير بالملاحظة أن أول السلاطين السنيين الذين اضطلعوا بحماية فريضة الحج، قبل نور الدين زنكي وتلامذته سلاطين بني أيوب، كان السلطان محمود الغزنوي أول السلاطين السنيين وأقدمهم ظهور في تاريخ المشرق الإسلامي (3)، ثم ورثه السلاجقة، فالسلطان ملكشاه السلجوقي، كان أول من استن وسائل حماية هذه الفريضة لمن بعده من السلاطين، فبنى أحواض الماء على طريق الحجاز، ورفع المكوس ورسوم الحفاوة عن طريق الحج، وأقطع أمراء الحرمين نظير ذلك الإقطاعات والأموال، وكانوا يأخذون قبل ذلك من كل حاج سبعة دنانير ذهبية، وأنعم كذلك على عرب البادية وعلى مجاوري الكعبة بالإنعامات الطائلة (4).

خامساً: محاربة الأيوبيين للتشيع في مصر والشام واليمن:

ليس من السهل اليسير أن يقتلع مذهب من المذاهب بمجرد تغيير النظام السياسي في بلد من البلاد، إنما يحتاج التغيير إلى سنوات عديدة وإلى تدبير ليست من تدابير القوة والبطش فحسب، لذلك فالملاحظ أن صلاح الدين قد استخدم وسائل وأساليب عديدة في سبيل القضاء على الدعوة الفاطمية بمصر جاءت بعض هذه الأساليب تتسم بالشدة والعنف والحسم الفوري المباشر، والبعض الآخر اتخذ وسيلة الحيلة والتدرج، واستخدم بعضها القوى العسكرية، في حين نهج البعض الآخر سبيل الدعوة والتعليم والإقناع، والاستمالة عن طريق المنشآت الاجتماعية والدينية الخيرية وما يوقف عليها من أوقاف

(1) الذهب المسبوك ص 76 - 79.

(2) تاريخ مصر الإسلامية ص 232.

(3) تاريخ مصر الإسلامية ص 232.

(4) المصدر نفسه ص 233.

للصرف عليها⁽¹⁾ وكان للقاضي الفاضل دور بارز في رسم هذه الاستراتيجية، وقد تحدثت عن هذه الوسائل عند حديثنا عن زوال الدولة الفاطمية والتي كان من أهم أسبابها؛ إذلال الخليفة الفاطمي العاضد، ووضعه من مكانته وهيبة قصر الدولة الفاطمية، وقطع الجمعة الجامعة من الجامع الأزهر، وإبطال تدريس الفكر الفاطمي به، وإتلاف وحرق الكتب الشيعية الإسماعيلية، وألغى جميع الأعياد المذهبية للفاطميين، ومحو رسوم الفاطمية وعماليتهم، والحفاظ على أفراد البيت الفاطمي وإضعاف عاصمة الدولة الفاطمية، وإحياء قضية انتحال النسب الفاطمي إلى البيت النبوي، والاستمرار في ملاحقة بقايا التشيع في الشام واليمن⁽²⁾ ويبدو أن الشيعة وأنصار الفاطميين بمصر، قد فروا إلى صعيد مصر، والتفوا حول أحد أمراء العرب المتحمسين للدولة الفاطمية، كان يلقب كنز الدولة إلا أن صلاح الدين بعث أخاه الملك العادل، على جيش استطاع القضاء على هذه⁽³⁾ الفتنة، وكانت الدولة الأيوبية تتصدى بحزم، لكل المحاولات الفاطمية لإرجاع مصر إلى المذهب الشيعي الإسماعيلي.

واستمر الأيوبيون في الانتصار للعقيدة السنية وإبادة التراث الشيعي الرافضي، وتتبعوا أتباعه في القاهرة والصعيد، حتى لم يجسر أحد على التظاهر بمذهبها، فانقرضت دعوتها من مصر⁽⁴⁾، واستمروا في ملاحقة أتباع الدعوة في الشام واليمن حتى استطاعوا القضاء على الدعوة الإسماعيلية بمصر واليمن والشام، واستكملوا ما بدأه الغزنويون والسلاجقة والزنكيون في محاربة الدعوة الشيعية الإسماعيلية ونشر الدعوة السنية في إيران والشام⁽⁵⁾ ولقد أدركت الإسماعيلية أن دعوتهم لم تصب طول تاريخها على يد السلاطين السنيين مثل الغزنويين والسلاجقة بمثل النكبة التي نكبوا بها بسقوط الدولة الفاطمية وهي أعظم دولة شيعية قامت في التاريخ الإسلامي استحوذت الخلافة وكادت تضم العالم الإسلامي، كله تحت لوائها حين خطب لها ببغداد سنة 450هـ/1058⁽⁶⁾.

فلا غرو أن نظر الشيعة الإسماعيلية كلهم إلى صلاح الدين على أساس أنه هو الذي

(1) المصدر نفسه ص 181.

(2) المصدر نفسه ص 53 إلى 77.

(3) تاريخ مصر الإسلامية ص 75.

(4) المصدر نفسه ص 77.

(5) المصدر نفسه ص 78.

(6) المصدر نفسه ص 75.

أزال دولتهم الكبرى من مصر⁽¹⁾ ولهذا فالأقلام الشيعية الرافضية عبر التاريخ لا تكل ولا تمل في تشويه سيرة الناصر صلاح الدين الأيوبي. ولقد ظل التشيع في مصر يضعف شيئاً فشيئاً، حتى كاد يمحي منها، وأصبحت مصر تدين بمذهب أهل السنة والجماعة.

سادساً: من العوامل التي ساعدت الأيوبيين على حركة الإحياء السني:

من العوامل التي ساعدت على نجاح الأيوبيين في حركة الإحياء السني عوامل متعددة منها، لم يكن المذهب الشيعي الإسماعيلي راسخ القدم، وكان للمصريين تجاهه موقفان، الأول: موقف الإعجاب بأصحاب هذا المذهب نتيجة ما بذلوه من جهود في الدعوة إلى مذهبهم، كان من بينهم: الإكثار في الاحتفالات والدعوات والولائم، والسخاء في منح الهدايا والأعطيات، ومظاهر الترف والبذخ التي كانت تحيط بهم في شتى مناشط الحياة ومظاهر الأبهة والعظمة التي كان يحرصون دائماً على الظهور بها⁽²⁾. والموقف الثاني: موقف من قبل دعوتهم وانخرط في سلكها ومعظم هؤلاء دخلوا في الدعوة إما طمعاً في المال أو الجاه والمنصب، وإما خوفاً من التنكيل والعقاب وكلا الفريقين لم يعتنق المذهب عن عقيدة وإيمان. وقد سلك الفاطميون طريق الترغيب والترهيب في الدعوة إلى مذهبهم ضمن ما سلكوا من الأساليب والوسائل: فيعقوب بن كلس لما تولى الوزارة للعزير رتب في داره العلماء وأجرى لجمعهم الأرزاق⁽³⁾ وألزم الفاطميون جميع الموظفين - بعد فترة من استقرارهم في مصر - بأن يعتنقوا مذهب الدولة، فأصبح الحفاظ على المنصب أو الترقى في سلكه يتطلب التظاهر باعتراف عقيدتهم، ويلوح لنا أن الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنيين إلى التحول إلى المذهب الشيعي⁽⁴⁾.

أما مواقف الإرهاب التي اتبعتها الفاطميون لفرض المذهب على الناس فكثيرة: ففي عام 381هـ/991م ضرب رجل بمصر وطيف به في المدينة، لأنه وجد عنده موطأ مالك⁽⁵⁾، واضطهد السنة في عهد الحاكم بأمر الله سنة 395هـ/1004م وألزموا بكتابة

(1) المصدر نفسه ص 77.

(2) تاريخ التربية الإسلامية ص 412، 413.

(3) المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

(4) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ص 218.

(5) المواعظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

سب الصحابة على دورهم، فانضاعوا للأمر مكرهين (1)، وترتب على هذه الموجة من الاضطهاد في عهد الحاكم أن الناس سارعوا إلى الدخول في الدعوة خوفاً، فجلس لهم قاضي القضاة... فقدموا من سائر النواحي والضياع وازدحم الناس.. فمات عدة من الرجال والنساء (2) وفي عهد الظاهر كان نفوذ المالكية ما يزال قويا، فاضطر الخليفة إلى إخراج فقهاءهم من مصر في عام 416هـ/1025م وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام في أصول العقيدة الإسماعيلية وغيره من كتبهم وجعل لمن يحفظ ذلك مالا (3).

ومن هذا، يتضح لنا أن هذا المذهب لم يبق على دعائم راسخة في مصر، ولذلك عندما جاء صلاح الدين، وأنشأ المدارس السنية، وفوض القضاء للشافعية، تم اتباع ذلك بإسقاط الخلافة الفاطمية استبعاد الشافعية والمالكية نفوذهم في مصر واختفى مذهب الشيعة الإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها (4)، والله الحمد والمنة، ولا يزال الشيعة الروافض يسعون لإيجاد موطن قدم في مصر الحبيبة العزيزة، إلا أن حب المصريين الأبطال لدينهم العزيز، وثباتهم المستميت على مر العصور على ثوابته من عقيدة سنية صحيحة، وفهم سليم لكتاب الله، ومحبة صادقة لسنة رسول الله ﷺ واقتداء رشيد بهدي الخلافة الراشدة جعلت محاولات الشيعة تضييع في مهب الرياح، ولقد كانت المدارس السنية تعين الأمة على التمسك بالكتاب والسنة وتحذرها من البدع والابتداع، وتذكرها بما ثبت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في النهي عن البدع والتحذير منها، منها كتلك الآيات المصروفة بطاعة الله ورسوله (5) قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور، آية: 54) وقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: 63).

ومما ساعد الأيوبيين على تحقيق أهدافهم:

- أيضاً - في مصر أنها أصبحت في عهدهم منطقة جذب ونشاط لعلماء السنة على اختلاف مذاهبهم، فأسهموا إسهاماً رائعاً في العودة بمصر إلى رحاب السنة، وذلك عن

(1) المواظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي والفكري ص 254.

(2) المواظ والاعتبار (341/2) التاريخ السياسي ص 254.

(3) المصدر نفسه (341/2، 342).

(4) المصدر السابق (343/2) التاريخ السياسي ص 255.

(5) تحذير المسلمين من الابتداع والبدع في الدين ص 25.

طريق التدريس في المدارس التي أنشئت، أو عن طريق الوعظ أو تأليف الكتب التي تنتصر للسنة، وظلت هذه الجهود مستمرة تلاحق الجيوب المتبقية للشيعة الإسماعيلية في مصر، وكان معظم العلماء الذين شاركوا الأيوبيين في جهودهم على مستوى المسؤولية التي أقيمت على عاتقهم: علماء وخلقاً وديانة، كما كان للكثير منهم مشاركة في الحياة السياسية الاجتماعية، كالقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني، وبهاء الدين بن شداد، وشرف الدين ابن أبي عصرون، والعز بن عبد السلام، بل كان لبعضهم مشاركة فعالة في ميادين الحرب والجهاد، كالفقيه: عيسى الهكاري، وكان كثير منهم على قدر كبير من الشجاعة في مواجهة الحكام، والنصح لهم، فكانوا نماذج رائعة لعامة الناس، ومن ثم فإن تأثيرهم فيهم كان قوياً مؤثراً (1) كما أن كثيراً من الأيوبيين كانوا علماء وأسهموا في التمكين للمذهب السني - سيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

سابعاً: مضامين تربوية في توجهات صلاح الدين:

من هذه المضامين التي نلمسها في توجيهات صلاح الدين في رسائله كقائد سياسي وزعيم إسلامي الآتي:

1 - التدين بطاعة ولي الأمر:

يقول في صدد الحديث عن طاعته للخليفة العباسي: ونحن لا نتدين إلا بطاعة الإمام ولا نرى ذلك إلا من أركان الإسلام ويقول: وقد عرف ما فضلنا الله تعالى به عليهما في نصر الدولة وقطع من كان ينازع رداؤها (2)

2 - تصفية الرموز البدعية من منابر الدعوة:

ويقول حول تطهير المنابر من دعاة الشيعة: وتطهير المنابر من رجس الأدياء ولم نعمل ما فعلنا لأجل الدنيا، فلا معنى للاعتداد بما الجزاء عنه بالحسن فتوقع في العقبي غير أن التحدث بنعم الله واجب (3).

3 - النهي عن التعصب للمذاهب:

حيث قال في رسالة إلى أخيه العادل الذي كان نائباً عنه في مصر وقد حصل بعض الشغب من بعض الأفراد: انتهى إلينا بالديار المصرية والحضرة العلية أن جماعة من

(1) التاريخ السياسي والفكري ص 255، 256.

(2) مضممار الحقائق ص 62 - 65 أثر جهود صلاح الدين التربوية في تغير واقع المجتمع المصري ص 82.

(3) أثر جهود صلاح الدين التربوية ص 83.

الفقهاء، قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ما أطاعوا فيه القوى البغيضة وأحبوا بها ما أماته الله من أصل حمية الجاهلية والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سمياً مطيعاً: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾ (آل عمران، آية: 103). ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها وما علمنا أن في ذلك نية تنجد ولا مصلحة توجد وليس يسع الخلف ما وسع السلف من الأدب، وليعلم العبد أن يكتب كتاباً إلى ربه، فليفكر فيما كتب وإلى من كتب(1).

4 - الحث على فضيلة العدل والإحسان للرعية :

وكان يحرص على توجيهه ولاته بقوله: فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع ليجاوز بهم درجة العدل إلى إحسان الضائع فإذا أسند هذا الأمر إلى ولاته، فليكونوا نقاة لا يجد الهوى عليهم سبيلاً ولا يجد الشيطان عندهم مقبلاً وإذا حملوا ثقلاً لا يجدون حمله ثقيلاً(2)، حيث يقول: وقد فشا في هذا الزمن أخذ الرشوة وهي محق أمر رسول الله ﷺ بنبذه ونهى عن أخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كأخذ الربا الذي قرنت اللعنة بمؤكله وأكله(3).

5 - الاهتمام بأمر القضاء :

حيث يقول: وأما القضاة الذين هم للشريعة أوتاد وإمضاء حكامها أجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق إليها النفاذ فينبغي أن يعول فيهم على الواحد دون الاثنين، وأن يستعان بهم في الفصل بذوي الأيدي وفي اليقظة بذوي اليدين وأمر الحكام لا يتولاه من سألته وإنما يتولاه من غفل عنه وأغفله(4) لقد حرص صلاح الدين على العودة إلى الأصول المتمثلة بالكتاب والسنة، وحافظ على هذه الأصول من خلال الجهود وذلك بتصفية البدع والمخالفات الشرعية وقام بصيانة المناهج وعمل على وحدتها، ونشر مبدأ تكافؤ الفرص التعليمية وربط الأمة بواقعها من خلال عقيدتها الصحيحة فانطلقت لتحقيق الانتصارات العظيمة والرائعة من تحرير البيت المقدس وغيرها من الفتوحات.

(1) كتاب الروضتين (178/2).

(2) صبح الأعشى القلقشندي (144/3 - 148).

(3) المرجع السابق (144/3، 148) أثر جهود صلاح الدين ص 84.

(4) المصدر نفسه.

* * * * *